مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

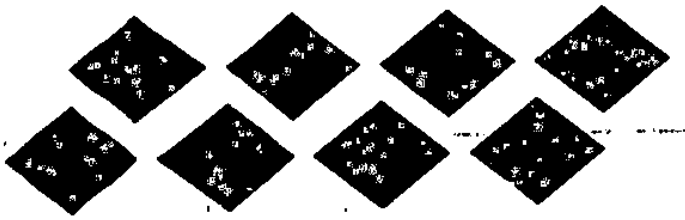

مدينة الإسكندرية في عصر المماليك البرجية من خلال كتابات الرحالة الأوربيين

د. إبراهيم محمد حامد سليمان
قسم التاريخ الإسلامي – كلية دار العلوم بجامعة المنيا
الكلية الجامعية بالقنفذة – جامعة أم القرى

مقدمة:

كان لانهيار الوجود الصليبي في بلاد الشام وسقوط مدينة عكا في أيدي المماليك بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ نتائج مهمة على شبكة التجارة داخل مياه البحر المتوسط، بالإضافة إلى تأثيرها على خط سير الرحالة والحجاج المتجهين إلى بلاد الشرق الإسلامي[١]؛ فعقب هذا الحدث الكبير أصبحت مدينة الأسكندرية هي الوجهة الرئيسة للتجار الغربيين – وبصفة خاصة البنادقة– الذين أقاموا لهم مؤسسات تجارية جديدة داخل المدينة وعقدوا معاهدات تجارية مع السلطات المملوكية، والتي بموجبها حصلوا على العديد من المميزات [٢]. كما أن حركة الحج إلى "الأراضي المقدسة" التي شهدت توقفا مؤقتا خلال بدايات القرن الرابع عشر الميلادي/الثامن الهجري سرعان ما عادت لسابق عهدها؛ فقد دخلت السلطات المملوكية والبابوية في محادثات دبلوماسية نتج عنها توقيع اتفاقية عام١٣٤٠م/ ٧٤٠-٧٤١هـ والتي عاد بموجبها تدفق الحجاج إلى الشرق الإسلامي، لكن الشيء الملاحظ آنذاك هو التغير الذي طرأ على خط سير الرحلة؛ فلم تعد تلك السفن تتوجه مباشرة إلى السواحل والمدن الشامية، وإنما كان لزاما عليها بداية أن تمر بمدينة الأسكندرية قبل أن تواصل مسيرتها عبر شبه جزيرة سيناء إلى الأراضي المقدسة [٣].

هذا النشاط والازدهار الذي بدأت تشهده الأسكندرية جاء مصحوبا إذاً بموجة كبيرة من الرحلات التي قام بها الغربيون إلي المدينة، وقد كان وصول هؤلاء

---

[١] واقع الأمر أنه كانت هناك علاقة وثيقة بين القوافل التجارية التي كانت تأتي إلى الأسكندرية وبين رحلات الحجاج الغربيين الراغبين في القدوم إلى تلك المدينة؛ فقد كانت سفن وأساطيل المدن التجارية هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع عن طريقها هؤلاء الحجاج الوصول إلى الأراضي المصرية، لذا فقد جاء عزوف معظم تلك المدن التجارية عن ارتياد الأراضي المملوكية– تحت ضغط من البابوية– مصحوباً بانخفاض كبير في عدد الحجاج القادمين إلى مصر.

[2] A. Graboïs, *Le pèlerin occidental en Terre sainte au Moyen âge*, Bruxelles, 1998, p. 130.

[3] B. Dnsette, « Le voyage d'Outre-mer à la fin du XV^e siècle», in *Chemins d'Outre-mer, Etudes d'histoire sur la Méditerranée médiévale offertes à Michel Balrd*, T. 1, publication de la Sorbonne, Paris, 2004, p. 176.

الرحالة يمثل فرصة لهم لاستكشاف البلاد المصرية ومعرفة عاداتها وتقاليدها وأحوال البلاد من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فكانت كتاباتهم هي المصدر الرئيسي الذي استقى منه العالم الغربي في ذلك الوقت معلوماتهم عن مصر ودولة المماليك. كما أنه ليس بخاف أن العديد من هؤلاء الرحالة- وعلى رأسهم إيمانويل بيلوتي- قد قام بكتابة تقارير عما شاهده وعاينه وقام بتسليمها إلى البابوية؛ كي تكون معينة لها في حربها ضد مصر وحكامها المماليك.

أما عن أهمية ما خلفه لنا هؤلاء الرحالة من روايات وأخبار تخص مدينة الأسكندرية بصفة خاصة والبلاد المصرية بصفة عامة في عصر سلاطين المماليك فيكمن في حقيقة مفادها أن المصادر التاريخية الإسلامية التي وصلت إلينا عن تلك الفترة الزمنية اتسمت باهتمامها وتركيزها على النواحي السياسية والحربية في المقام الأول، وقلما نجد إشارات ومعلومات مكتملة تتعلق بالحديث عن النواحي الحضارية الأخرى (كالحديث عن طبقات المجتمع وأحوالهم والظروف الاقتصادية للبلاد)، وعلى هذا فقد جاءت كتابات الرحالة الغربيين- إلى جانب الرحالة المسلمين- لتسد جانبا مهما أغفلت عنه مصادر ذلك العصر.

وتنبغي الإشارة في هذا المقام إلى أنه رغم أهمية الكتابات والروايات التي تركها لنا هؤلاء الرحالة فيما يتعلق بمصر وأحوالها إلا أنه يجب أن يخضع هذا النوع من المصادر للنقد التاريخي؛ فالرحالة الغربيّون- في تلك الظروف الدقيقة التي كانت تشهد صراعاً محتدماً بين الشرق الإسلامي والغرب الأوربي- اعتادوا على أن يأتوا إلى مصر بأفكارهم المسبقة وتحفّظاتهم، وكانت لهم نظرة تعصبية ضد كل ما هو غير مسيحي، وغالباً ما كانوا يذكرون أشياء غير صحيحة أو مبالغ فيها خاصة فيما يتعلق بسكان مصر المسلمين وعاداتهم وسلوكياتهم، لذا فإنه يلزم توخي الحذر عند قراءة كتب هؤلاء الرحالة.

يأتي هذا البحث إذاً مهتما بإظهار كتابات واهتمامات الرحالة الأوروبيين بمدينة الأسكندرية التي قاموا بزيارتها في عصر دولة المماليك البرجية (الجراكسة)، مع ذكر ما سجله هؤلاء الرحالة من انطباعات ومشاهدات خاصة

جاءت نتيجة معاينة ومعاصرة للمدينة وأحوالها في ذلك الوقت. وبناء على ذلك فقد جاءت هذه الدراسة مشتملة على عدة محاور رئيسة:

المحور الأول منها يتحدث عن الموقع الجغرفي المميز لمدينة الأسكندرية والذي جعل منها واحدة من أهم مواني الشرق الإسلامي، كما أن هذا المحور تعرض كذلك للحديث عن الجانب العمراني للمدينة وأهم التحصينات التي تميزت بها.

أما المحور الثاني فقد تعرض للأوضاع الاجتماعية داخل الأسكندرية في الفترة محل الدراسة، مبيناً أهم العناصر السكانية ومكانة المسيحيين واليهود داخل المجتمع، بالإضافة لإعطاء لمحة عن منازل المدينة وطرقاتها.

والمحور الثالث تناول الجانب الأكثر اعتناء من جانب الرحالة؛ فقد تحدث عن الأوضاع الاقتصادية للأسكندرية؛ مبينا الأهمية التجارية للمدينة والتي بفضلها نالت شهرتها وازدهارها، ومن أهم الملامح التي جاءت في هذا المحور: أوضاع الجاليات التجارية الغربية داخل المدينة، وأهم البضائع التي حملها معهم هؤلاء التجار وتلك التي تحصلوا عليها من أسواق الأسكندرية، بالإضافة لذكر أهم الفنادق الغربية الموجودة بالمدينة وأهم المواني التي كانت تستقبل السفن التجارية. هذا إلى جانب الحديث عن أهمية الزراعة وأهم الحاصلات والمنتجات الزراعية التي اشتهرت بها تلك المدينة، فضلا عن إعطاء لمحة عن أهم الأعمال الحرفية التي كان يمارسها بعض السكان.

وجاء المحور الرابع والأخير ليعالج وضع الأسكندرية داخل المشروع الصليبي، وأهم الخطوات والأفكار التي ذكرها بعض المنظرين للحروب الصليبية من أجل الاستحواذ على تلك المدينة، ومن ثمَّ القضاء على دولة المماليك. ثم اختتم البحث بملخص لأهم نتائج هذه الدراسة.

١. جغرافية المدينة وتحصيناتها

تعد مدينة الأسكندرية واحدة من أهم المدن المصرية- إن لم تكن أهمها على الاطلاق- في العصر المملوكي، وقد لعب الموقع الجغرافي الذي تميزت به تلك المدينة دوراً كبيراً في إكسابها تلك الأهمية؛ فسواحلها الممتدة على البحر المتوسط

والممهدة لاستقبال السفن التجارية القادمة عبر هذا البحر من البلاد الأوربية والآسيوية والأفريقية على حد سواء جعل منها العاصمة التجارية الأولى للبلاد بلا منازع[١].

ـ وبصفة عامة كانت المدينة تأخذ شكلاً مربعاً، كما أنها كانت تمثل البقعة والمنطقة العمرانية الأخيرة لمصر من ناحية الغرب، "فخلف أسوار المدينة من تلك الناحية كانت تمتد صحراء شاسعة وممتدة وصولا إلى الأراضي الليبية"[٢]. والجزء الأكبر من المدينة كان محاطاً بمياه البحر، في حين أن الجزء المتبقي كان محوطا "بالحدائق والبساتين البديعة"[٣]. كما أن الشيء الذي كان ملاحظاً بالنسبة للرحالة هو المساحة الكبيرة للمدينة، حتى أن أحد الرحالة قد ذكر أنها "تفوق في مساحتها مدينة نابولي الإيطالية"[٤].

وقد تميز جو وطقس الأسكندرية بتفاوت كبير في درجات الحرارة ما بين سخونة ولهيب الصيف من ناحية وبرودة الشتاء من ناحية أخرى، وهو الأمر الذي جعل زائري المدينة عرضة للعديد من الأمراض نتيجة عدم تعودهم على مثل هذا المناخ [٥]. كما أن الفترة الممتدة ما بين شهري يونيو وأغسطس كانت تشهد هبوب رياح حارة سيئة، والتي "كانت تهاجم الناس وكأنها الطاعون"، وغالبا ما كانت تتسبب في إلحاق الأذى بالعيون. هذا الأمر دفع بعض الأهالي المقتدرين إلى

---

(1) F. Fabri, *Voyage en Egypte*, Traduit du Latin et annoté par Jacques Masson, éd. IFAO, Le Caire, 1975, p. 718 ; T. Bellorini, *Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384 by Frescobaldi, Gucci and Sigoli*, Traduction: O. Sennoune, Jerusalem, 1948, p. 40-41.

(2) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 717-718 ; Ch. Potvin, *Œuvres de Ghillebert de Lannoy : voyageur, diplomate et moraliste*, Louvain, imprimerie de P. Lefever, 1878, p. 100 ; Jean-Léon L'Africain, *Description de l'Afrique*, traduit de l'Italien par A. Epaulard, éd. Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris, 1980, p. 496.

(3) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 655 ; J. Ghistele, *Voyage en Egypte (1482-1483)*, Traduction et notes de Renée Bauwens-Préaux, IFAO, Le Caire, 1976, p. 111 ; F. Bonnardot, *Le saint voyage de Jérusalem du seigneur d'Anglure*, Paris, 1878, p. 78.

(4) L. Legrand, « Relation de pèlerinage de Nicolas de Martoni (1394-1395) », in *Revue de l'Orient Latin*, T. III, 1894, p. 588 ; Ch. Schefer, *Le voyage d'Outremer : Egypte, Mont Sinay, Palestine de Jean Thenaud, suivi de la Relation de l'ambassade de Domenico Trevisan auprès du soudan d'Egypte, 1512*, Paris, 1884, p. 173.

(5) J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 111.

الرحيل عن المدينة والاتجاه للإقامة في مكان آخر خلال هذه الفترة[1]. وقد وصف ليون الأفريقي جو مصر بصفة عامة بأنه سيئ، ويميل إلى الحرارة الشديدة، "حتى أنه من شدة حرارة الجو في الصيف فإن البلاد تبدو وكأنها تحترق"، ومن أجل التغلب على صعوبة هذا الجو فقد كان الأهالي يشيدون عددا من المنافذ داخل منازلهم حتى يمر عبرها الهواء البارد إلى الداخل[2]. وبخلاف معظم المدن المصرية التي كانت نادراً ما ترى الأمطار، أشار الرحالة إلى أن الأسكندرية كانت تشهد في الشتاء سقوطاً كثيفاً للأمطار، وهو الأمر الذي كان يؤدي إلى إيجاد نوع من الصعوبة في حركة تنقل الناس داخل الشوارع، بيد أن هذه الأمطار لم تكن تستمر لوقت طويل، فهي تنزل على فترات متقطعة [3].

ولم تكن الأسكندرية تبتعد كثيرا عن الفرع الغربي لنهر النيل (فرع رشيد)، لذا فإنه في الوقت المعتاد لفيضان النيل كان الماء يصل إلى المدينة من هذا الفرع عبر قناة أو خليج [4]، وهو ما كان يسمح للسكان بالقيام بتخزين المياه في

---

(1) E. Adler, « Meshullam Ben R. Menahem of Volterra », 1481, in *Jewish travelers*, New Delhi, 1995, p. 160.

(2) Jean-Léon L'Africain, *Op. cit*, p. 493.

(3) E. Piloti, *L'Égypte au commencement du XV^e siècle d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète*, Le Caire, 1932, p. 81 ; E. Piloti, *Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte*, publié par Pierre-Herman Dopp, Paris, 1958, p. 178 ; H. Thucher, *Grundtlicher und Eigentlicher Bericht der Meerfart*, Traduction: U. Castel, Francfurt am Meyn, 1561, p. 57b ; J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 111.

(٤) تعود نشأة خليج الأسكندرية إلى عام ٣٣١ ق. م. مواكباً لإنشاء مدينة الأسكندرية نفسها وذلك ليمدها بالمياه من فرع النيل الغربي، وقد تغير موضعه عبر الزمان عدة مرات. هذا الخليج تجدد حفره ثلاث مرات على الأقل في عصر سلاطين المماليك؛ كانت الأولى عام ٦٦٢هـ/٦٣-١٢٦٤م في عهد السلطان الظاهر بيبرس حين امتلأت فوهته بالرمال فقل الماء بالأسكندرية، وأصدر السلطان أوامره إلى الأمير عز الدين أمير جاندار لعمارة هذا الخليج، فباشر الحفر فيه بنفسه حتى أجرى الماء، وأمر ببناء مسجد تذكاري هناك سماه باسم الملك الظاهر، كما أنه بعد عامين (٦٦٤هـ/١٢٦٥م) عاود السلطان بيبرس إعادة حفر الخليج بعدما طمر بالرمال. وكانت المرة الثانية في عهد الناصر محمد بن قلاون عام ٧١٠هـ/١٣١٠م، وفي هذه المرة تم تنظيف مجرى الخليج حتى جرى الماء فيه ودخلته السفن بالغلال والمتاجر، وقد شارك في حفر الخليج حوالي أربعين ألف عامل. وحفر الخليج للمرة الثالثة في عهد السلطان الأشرف برسباي عام ٨٢٦هـ/١٤٣٢م. انظر: جمال الدين الشيال، *تاريخ مدينة الأسكندرية في العصر الإسلامي*، دار المعارف-القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٠٠-١٠١، ١٠٥-١٠٦؛ قاسم عبده قاسم، *النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك*، دار المعارف-القاهرة، ١٩٧٨م، ص ٢٩-٣٠.

صهاريج كبيرة وخزانات تحت الأرض، هذا الأمر كان من الأهمية بمكان بالنسبة للمدينة؛ فقد كانت تلك المياه تمثل المصدر الأساسي الذي يعيش عليه السكان طوال العام في ظل ندرة المياه العذبة في تلك المنطقة [١]. وقد كان هناك اهتمام كبير بتنظيف تلك الصهاريج سنوياً حتى لا يترسب بها الأملاح والرمال، لأنه "في حالة التقصير في هذا الأمر فإن المدينة لن تكون صالحة للسكنى وسيهجرها السكان في الحال" [٢]. وقد أشار بيلوتي إلى أن عدداً من السفن كانت تبحر من حين لآخر إلى مدينة رشيد وتعود محملة بما يزيد عن ألف قارورة من المياه العذبة *mille bottes*، والتي كانت تنقل إلى ميادين المدينة العامة وتوضع في صهاريج وخزانات للمياه [٣]. هذه الخزانات كان يبلغ عددها عشراً، وكانت تسمى "بخزانات السلطان" [٤]. ويشير الرحالة إلى أن النيل كان يبدأ في الزيادة مع دخول شهر يونيو، وفترة الفيضان كانت لا تستمر أكثر من أربعين يوما، كما أن فترة انخفاض مستوى المياه في النيل كانت تصل أيضاً إلى ما يقارب الأربعين يوما[٥]. ويذكر ليون الأفريقي أنه طوال فترة الفيضان كانت كل مدن وقرى مصر تشبه الجزر، بحيث إنه لم يكن الانتقال من بلد إلى أخرى ممكنا إلا باستخدام المراكب والقوارب[٦].

---

(1) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 717 ; E. Piloti, *L'Egypte*, p. 23-24, 81 ; Ch. Potvin, *Op. cit.*, p. 106 ; L. Legrand, *Op. cit*, p. 590 ; Jean-Léon L'Africain, *Op. cit.*, p. 497 ; Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 175.

(2) J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 116.

(3) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 81.

(4) E. Piloti, *Traité*, p. 67.

(5) Jean-Léon L'Africain, *Op. cit.*, p. 494 ; Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 175.

(6) Jean-Léon L'Africain, *Op. cit.*, p. 494.

حقيقة الأمر أن انخفاض مستوى مياه النيل كانت يستمر طوال العام حتى الوصول إلى مرحلة الفيضان في العام التالي؛ فبعد فترة من الاستقرار (تقريبا بعد سبعين يوماً من بدء الفيضان أي نحو السادس والعشرين من شهر سبتمبر) يبدأ منسوب مياه النهر في الانخفاض، ويستعيد مستواه الطبيعي في شهر نوفمبر. انظر: Jean-Léon L'Africain, *Op., cit*, p. 494, marge (40)

أما فيما يخص عمران المدينة، فقد ذكر الرحالة الغربيون أن الأسكندرية في تلك الفترة كانت مهدمة ومنهارة[١]. ويؤكد فيليكس فابري أن هذا الخراب "كان يمتد بطول وعرض المدينة" [٢]. كما أن جيستيل يذكر أن ما يصل تقريباً إلى خمسين بالمائة من منازل المدينة كانت منهارة ومهدمة، هذا الأمر كان ينطبق على كل شوارع المدينة باستثناء شارع القديس مارك *Saint-Marc* وبعض الشوارع التي كانت تقع بالقرب من أبواب المدينة، والتي تميزت باشتمالها على كثير من المحلات التجارية والمنازل الفخمة، لذا فقد كانت تكتظ بالسكان والمارة [٣]. الأمر نفسه أشار إليه سوتشر- بنوع من المبالغة-، حيث أكد على أنه بالرغم من اتساع المدينة وجمالها إلا أن الأجزاء المعمورة والمأهولة فيها لا تتجاوز عشر مساحتها [٤]. كما أن جون تنود يذكر أن عدد منازل المدينة ككل- مع بداية القرن السادس عشر الميلادي/العاشر الهجري- لم يكن يتعدى الألفين [٥].

في الحقيقة هذا الأمر أصاب الرحالة بالدهشة والحيرة؛ فرغم أن أسوار المدينة كانت تتميز بضخامتها وقوتها وارتفاعها إلا أنها كانت "لا تضم بداخلها إلا أطلالا وخرابا" [٦]. فقد أشار أنسلم أدورنو أنهم عندما شاهدوا الأسكندرية لأول مرة من سفينتهم وهم في عرض البحر تراءت لهم "مدينة فخمة ومهيبة بأسوارها العالية وأبوابها الجميلة وتلالها المرتفعة..... إلا أن المدينة الآن بالداخل لا تبدو على نفس درجة جمالها الخارجي" [٧]. وقد ذكر أحد الرحالة أنه لما رأى المدينة على هذه الحالة من الخراب وذهاب رونقها وبهائها الذي كانت عليه سابقا "دمعت

(1) E. Adler, *Op. cit.*, p. 159-160 ; T. Bellorini, *Op. cit.*, p. 39 ; Ch. Potvin, *Op. cit.*, p. 107 ; Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 173.
(2) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 655.
(3) J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 115.
(4) H. Thucher, *Op. cit.*, p. 57b.
(5) Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 24.
(6) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 665 ; M. Baumgarten, *The Travels of Martin Baumgarten, a Nobleman of Germany, through Egypt, Arabia, Palestine, and Syria*, Traduction: Cl. Normand, London, 1732, p. 392 ; F. Bonnardot, *Op. cit.*, p. 79 ; J. Heers, *Itinéraire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470-1471)*, Paris, 1995, p. 163.
(7) J. Heers, *Op. cit.*, p. 163.

عيناه" حزنا عليها !! [١]. وقد أرجع هؤلاء الرحالة سبب الدمار والخراب الذي كانت عليه المدينة في ذلك الوقت إلى الهجوم الضاري الذي تعرضت له الأسكندرية من قبل ملك قبرص بطرس لوزجنان وجنوده في شهر أكتوبر من عام ١٣٦٥م/المحرم ٧٦٧هـ[٢].

وبداخل المدينة كان يوجد تلان مرتفعان، وعلى كل واحد منهما كان يوجد برج حصين يمكن من خلاله رؤية ومراقبة البحر والسفن القادمة إلى الميناء. وبمجرد رؤية احدى السفن كان حراس الأبراج يقومون بإرسال رسالة سريعة إلى حاكم المدينة يخبرونه بالأمر[٣]. وقد ذكر ليون الأفريقي أن حراس تلك الأبراج كانوا يحصلون على مكافأة مجزية في مقابل عملهم هذا، إلا أنه في حالة تقصير أحدهم في عمله وعدم إبلاغ السلطات بوصول إحدى السفن- سواء بسبب نومه أو مغادرته للبرج- فإنه كان يعاقب بتحمل غرامة مالية كبيرة تصل إلى ضعف المكافأة التي كان يتحصل عليها [٤]. وقد ذكر مشولام أنه قد اسندت مهمة الحراسة الليلية بهذه الحصون إلى ثمان مائة مملوك تقريباً، وقد وصفهم بقوله: إن كل واحد منهم كان يحمل في يده عصا ويرتدي قلنسوة حمراء على رأسه [٥]. ولا شك في أن تلك التحصينات القوية التي كانت عليها المدينة بما تشتمل عليه من أسوار عالية وأبراج وحراسة دائمة تعود في المقام الأول إلي محاولة تأمين وصول السفن إلى ميناء المدينة، بالإضافة إلى حماية المدينة من أي هجوم محتمل ضدها من ناحية البحر [٦].

---

(1) C. Passi, *Relationi del S. Pietro Martire milanese delle cose notabili della provincia dell Egitto scritte in lingua Latina alli Serenisse di elici memoria Re Catolici D. Fernando e D. Isabella*, Traduction : C. Burri et N. Sauneron. Venetia, 1564, p. 22-23.

(2) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 725 ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 163 ; E. Adler, *Op. cit.*, p. 161 ; H. Thucher, *Op. cit.*, p. 57b.

(3) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 724 ; M. Baumgarten, *Op. cit.*, p. 392 ; L. Legrand, *Op. cit.*, p. 589 ; H. Moranville, *Un pèlerinage en Terre sainte et au Sinai au XV^e siècle*, Paris, 1905, p. 33.

(4) Jean-Léon L'Africain, *Op. cit.*, p. 496-497.

(5) E. Adler, *Op. cit.*, p. 158.

(6) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 724.

وكانت الأسكندرية تشتمل على أربعة أبواب: الأول يقع في الشرق من ناحية فرع النيل الغربي (فرع رشيد) وهو الباب الرئيسي لاستقبال التجار والمسافرين القادمين من القاهرة عبر نهر النيل، والباب الثاني يقع في الجنوب ناحية البحيرة، والثالث في الغرب ناحية صحراء برقة، والرابع والأخير من ناحية البحر حيث يوجد ميناء المدينة [١]. أما فيما يخص أبواب المدينة المعدة لاستقبال القادمين من القاهرة ونواحيها فيشير فابري إلي أنه كان يوجد بابان متمايزان؛ أحدهما كان مخصصاً للسكان المحليين "وللأشخاص النبلاء" القادمين من البلدان الإسلامية، أما الباب الآخر- والذي كان يطبق فيه تفتيش ذاتي دقيق- فقد خصص للأجانب القادمين من البلدان الأوربية. ويروي لنا هذا الرحال أنه عندما اتجه مع رفقائه من الحجاج إلى الباب الأول بطريق الخطأ "انهال عليهم حراس الأبواب ضربا بالسياط والعصي" [٢]. ويضيف فابري أن الباب المخصص لدخولهم كان يتميز بضخامته وارتفاعه، وهو محصن بأبراج "ودفاعات مدهشة"، ومزود بأقفال حديدية [٣]. وقد جرت العادة بأن المسيحيين القادمين إلى المدينة كانوا لا يستطيعون دخولها وهم يمتطون الدواب وإنما كان يتعين عليهم أن يدخلوا من الأبواب وهم سائرون على أقدامهم [٤].

أما عنالإجراءات التفتيشية المتبعة من قبل حراس هذه الأبواب فقد تميزت بالشدة والعنف، وكان لا يستطيع أحد التهرب من دفع الضرائب المفروضة أو محاولة إخفاء ممتلكاته [٥]. ورغم أن بعض الحجاج كان يسعى إلى الحصول على كتاب من الديوان السلطاني بالقاهرة حتى يسهل له إجراءات دخوله إلى الأسكندرية، إلا أن هذا الأمر لم يكن ذا جدوى بل إنه كان سبباً في تعرضهم لكثير من المضايقات أثناء عبورهم من أبواب المدينة، "لأن الحراس كانوا يظنون أنهم

---

(1) Jean-Léon L'Africain, *Op. cit.*, p. 496.
(2) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 656.
(3) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 657.
(4) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 655-656.
(5) L. Legrand, *Op. cit.*, p. 587 ; H. Moranville, *Op. cit*, p. 32 ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 173 ; H. Thucher, *Op. cit.*, p. 56b.

يحملون معهم أشياء ثمينة ونفيسة، لذا فقد كانوا يدققون كثيراً في تفتيش متعلقاتهم"[١].

ويروي فابري الخطوات التي مر بها أثناء دخوله المدينة قائلا: إنه كان يقف أمام الباب الخارجي موظف لتحصيل الضرائب يحمل في يده سوطاً، وقد سمح لهم هذا الحارس بالمرور بعد أن حصل قليلاً من الأموال كضريبة على الدواب فقط. وفي الوقت الذي ظن فيه هذا الرحال وبقية الحجاج أن إجراءات دخولهم إلى المدينة قد انتهت، فوجئوا بباب داخلي كان يقف عليه حراس يحملون السلاح، وقد أمروهم بإنزال أغراضهم وبضائعهم من على ظهور الدواب، وأخبروهم بأنهم سيقضون ليلتهم في هذا المكان، وأنه سيسمح لهم بدخول المدينة صباحاً بعد أن يقوموا بتفتيش أمتعتهم وأخذ الضرائب المستحقة عليها [٢]. ويؤكد فابري أن السبب الرئيسي في إتباع مثل هذه الإجراءات التعسفية يعود إلى "حقد وكره هؤلاء المسلمين لهم" [٣]. كما أنه يضيف بأنهم في صباح اليوم التالي- ولعلمهم بالإجراءات التفتيشية القاسية التي سيتعرضون لها- بدأ كل واحد منهم يحاول جاهداً إخفاء ما يحمله معه من نقود وأشياء ثمينة، سواء داخل حقائبهم أو داخل بعض الأواني التي كانوا يحملونها معهم أو داخل ملابسهم [٤].

وتجدر الإشارة إلى أن عمليات التفتيش الدقيقة التي كانت تتم على أبواب المدينة لم تقتصر فقط على التجار والحجاج الأوربيين، وإنما عانى السكان المحليون كذلك من مثل تلك الإجراءات التعسفية، وقد أشار فابري إلى هذا الأمر قائلا إنه رأي بعينيه حراس الأبواب والمسئولين عن جمع الضرائب "يقومون بتجريد هؤلاء السكان من ملابسهم مخافة أن تكون هناك أشياء مختبئة بداخلها" [٥]. وبصفة عامة كانت تفرض ضريبة تقدر بواحد في المائة على النقود والأموال

---

(1) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 519.
(2) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 657-658.
(3) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 659.
(4) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 661.
(5) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 663.

التي يحملها الأشخاص، أما فيما يخص البضائع والمتعلقات الشخصية الأخرى فقد كانت تلك الضريبة المفروضة عليها ترتفع إلى العشر[1].

في هذا المقام يجب الإشارة إلى الكلمات الصادرة عن فابري وهو يبرر لجوأه إلى محاولة إخفاء متعلقاته الثمينة حتى لا يسدد عنها الضرائب المفروضة من قِبَل السلطات المملوكية، تلك الكلمات التي تكشف عن وجود "روح الفكرة الصليبية" لدى هؤلاء الرحالة، فنراه يقول: "إننا لا نرتكب جرما أو خطيئة بإخفاء أغراضنا لأننا لسنا محكومين أو خاضعين لهؤلاء المسلمين أو لقوانينهم وشرائعهم..... بل إن هذه البلاد التي يحكمونها هي في الأصل ملك لنا، استطاعوا أن ينتزعوها منا بالقوة بدون أي وجه حق، لذا فإننا لا ندين لهم بأي شيء" [2].

٢. الحياة الاجتماعية

١/٢ عناصر السكان

يبدو من ملاحظات فيليكس فابري أن المجتمع داخل الأسكندرية كان يتكون من خليط متنوع من السكان الذين كانت تمتلأ بهم شوارع المدينة، وهو الأمر الذي أثار انتباه واستغراب هذا الرحالة؛ فهناك العناصر المملوكية صاحبة المكانة المرموقة داخل المجتمع، والعامة من المسلمين، إلى جانب مسيحيي ويهودي المدينة، بالإضافة إلى العناصر المسيحية القادمة من الغرب الأوربي والتجار القادمين من البلدان الإسلامية [3]. أما إيمانويل بيلوتي فقد أشار إلى أن المجتمع المصري بصفة عامة كان يتكون من ثلاث طبقات: أولا الرقيق وهم عناصر قادمة إلى مصر من مناطق متفرقة وبصفة خاصة من البلدان الأوربية، ومن هذا العنصر كان يتشكل الجنود والأمراء والقادة المماليك بالإضافة لحكام المدن والسلطان المتوج بالقاهرة. ثانيا: أهل البلاد المحليين والذين كانوا يشكلون العنصر الأكثر عدداً وانتشاراً داخل البلاد، وهم يخضعون سياسيا للسلطان المملوكي، بينما

---

(1) J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 116 ; H. Thucher, *Op. cit.*, p. 56b-57a ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 173 ; E. Adler, *Op. cit.*, p. 158.
(2) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 662.
(3) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 677.

يخضعون دينيا وروحانيا لنفوذ الخليفة. ثالثا: العربان "القبائل البدوية" وهم أصحاب قوة ونفوذ كبير، وعدتهم الأساسية الخيول والسيوف، وكانوا ينتشرون في الجبال والقرى والضياع. هؤلاء العربان- بحسب بيلوتي- كانوا لا يتركون فرصة تمر دون أن يسببوا متاعب ومصاعب للسلطات المملوكية وللأهالي [1].

وبطبيعة الحال فقد احتلت طبقة المماليك المرتبة الأولى من حيث المكانة والأهمية داخل المجتمع، فكان ت لهم مميزات وحقوق لم يكن باستطاعة أي شخص آخر الحصول عليها؛ فقد استحوذ أفراد تلك الطبقة على معظم المناصب داخل المدينة، وبصفة خاصة العسكرية منها؛ فكان هؤلاء المماليك يمثلون عدة وأساس الحامية المدافعة عن المدينة ومنشآتها [2]. كما أن هؤلاء المماليك كانوا الوحيدين الذين يستطيعون تملك الخيول وركوبها، وما سواهم من السكان لم يكن يحق لهم هذا الأمر، وإنما كانت ظهور الحمير والبغال هي وسيلة تنقلهم وتحركاتهم [3].

وقوام هذه العناصر المملوكية كان يتشكل من مزيج وخليط لجنسيات متعددة أتت إلى مصر من بلدان مختلفة، فكان منهم ذوو الأصول التترية والتركية والعربية وغيرها من الجنسيات الأخرى [4]. وقد ذكر فابري أن عددا كبيرا من هؤلاء يأتي من البلاد الأوربية؛ حيث كان الأتراك يقومون بمهاجمة تلك المناطق ويستحوذون على عدد كبير من سكان الضياع والمزارع- بما في ذلك الأطفال الرضع- ثم يقوم التجار الأوربيون بحملهم إلى الأراضي المصرية [5]. والشيء الملاحظ هو التباين في أسعار هؤلاء الرقيق عند عرضهم للبيع في الأسواق، فقد تحكمت عدة عناصر في ارتفاع أو انخفاض قيمة كل واحد منهم، من ذلك المؤهلات الجسدية والعقلية بالإضافة إلى الجهة القادمين منها؛ فالرقيق الوافدون

---

(1) E. Piloti, *Traité*, p. 32-33.
(2) T. Bellorini, *Op. cit.*, p. 39.
(3) E. Adler, *Op. cit.*, p. ١٥٩; J. Heers, *Op. cit.*, p. 171.
(4) T. Bellorini, *Op. cit.*, p. 39.
(5) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 701.

من بلاد التتار– وهم الأكثر عدداً وتميزاً– كان يصل سعر الواحد منهم إلى مائة وثلاثين أو مائة وأربعين دوكات *ducat*.[1]، أما أولئك القادمون من البلاد اليونانية فكان سعرهم يصل إلى تسعين دوكات، بينما تراوح السعر ما بين السبعين والثمانين دوكات للقادمين من بلاد صربيا وألبانيا [2].

وعلى رأس طبقة المماليك كان يأتي حاكم المدينة وأميرها والذي كان يطلق عليه أحيانا لقب "ملك" [3]. ويصف لنا فابري حاكم المدينة بأنه أمير مملوكي ذو قوة ونفوذ كبير، وأنه صاحب خبرة ودهاء بحيث "إنه يستطيع من نظرة واحدة أن يكوّن فكرة كاملة ومدهشة عن الشخص الماثل أمامه" [4]. كما أن فرسكوبالدي أشار إلى عظمة وفخامة القصر الذي يقيم فيه هذا الأمير، وإلى كثرة الحراس الواقفين بالأبواب، وبداخل هذا القصر كان يوجد فناء واسع يؤدي إلى عدد من القاعات الفخمة [5]. وقد وصف الرحالة مجلس هذا الأمير قائلين: إنه كان يجلس على "دكة" داخل غرفة مفروشة ومزينة بأجمل أنواع السجاجيد والمفروشات، في مكان مرتفع عن بقية الحاضرين بحوالي قدمين (يسمى بالمصطبة)، وتحته بساط من الحرير، وقد جرت العادة بأن يقوم الحاضرون بتقبيل يدي الأمير عند دخولهم عليه [6]. كما أنه كان يوجد بداخل هذا البلاط عدد من المترجمين *drogmans* الذين يقومون بقراءة الرسائل القادمة للسلطان من بلدان مختلفة بلغات متعددة [7]. ومن خلال روايات هؤلاء الرحالة يتبين لنا كذلك أن موكب هذا الحاكم كان مهيباً وحافلاً؛ فقد كان محاطاً بعدد كبير من الجنود المماليك، بالإضافة إلى كبراء

---

[1] الدوكات هي العملة الذهبية الشهيرة لمدينة البندقية الايطالية في العصور الوسطى، وقد كانت هي العملة الأوربية الوحيدة المعترف والمتعامل بها داخل أراضي الدولة المملوكية. وقد بلغت تلك العملة شهرة كبيرة في ذلك الوقت حتى أنها وجدت لها سوقا رائجة في معظم بلدان الشرق. انظر:

E. Piloti, *L'Egypte*, p. 49, (marge 1).

(2) E. Piloti, *Traité*, p. 53.

(3) T. Bellorini, *Op. cit.*, p. 39.

(4) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 666.

(5) T. Bellorini, *Op. cit.*, p. 40.

(6) T. Bellorini, *Op. cit.*, p. 40 ; Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 172.

(7) Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 173.

ووجهاء المدينة، وكان هناك جنود يتقدمون الركب يقومون بقرع الطبول والنفخ في الأبواق، كما كان من المعتاد أن يخرج الأهالى إلى الشوارع لمشاهدة هذه الاحتفالية وتوجيه التحية للحاكم [1].

وقد اكتسب هذا الحاكم وضعية مميزة بفضل الأهمية الكبيرة التي كانت تمثلها مدينته للسلطات المملوكية من الناحية الاقتصادية. جدير بالذكر أن الخوف على المدينة من أعمال القرصنة وهجمات السفن الأوربية دفع السلطان المملوكى إلى أن يعين على تلك المدينة أميراً قوياً يتميز بالمهارة العسكرية، كما أنه كان يمده بحامية عسكرية كبيرة قلما نجدها في مكان آخر من ممتلكات السلطان. هذا الأمر كان يمثل بلا شك خطراً كبيراً على السلطان الحاكم نفسه، فبحسب سياسة المماليك المتبعة في الحكم [2] كانت تطلعات حاكم الأسكندرية تدفعه أحيانا إلى التفكير في الخروج على السلطان ومحاولة الوصول إلى كرسي العرش بالقاهرة [3]. وكان من مهام هذا الحاكم استقبال الأجانب الوافدين إلى المدينة، وإعطائهم وثيقة يستطيعون بها الاقامة داخل المدينة والتنقل فيها بكل أمان [4].

بيد أنه تجب الإشارة في هذا السياق إلى أن طبقة المماليك التي احتلت تلك المكانة المرموقة داخل المدينة هي تلك العناصر المنخرطة في الجيش المملوكي أو القائمة بمهام ووظائف إدارية من قِبَل السلطات المملوكية، أما عناصر الرقيق- وبصفة خاصة السود- المنتشرين بكثرة داخل المدينة فقد كانت أوضاعهم مزرية وقبعوا في مؤخرة السلم الطبقي؛ فها هو فابري يؤكد أن هذه العناصر كانت من الكثرة بحيث إنه لم يكن يخلو بيت في المدينة من وجود واحد أو أكثر من هؤلاء

---

(1) M. Baumgarten, *Op. cit.*, p. 391.

(2) أثناء حديثه عن نظام الحكم في مصر يذكر جيستل أن الوصول إلى كرسي الحكم في الدولة المملوكية لم يكن وراثيا ينتقل من الأب لابنه أو من الأخ لأخيه- باستثناء ما حدث مع السلطان قلاوون وأبنائه من بعده-؛ فعندما يموت السلطان كان كل واحد من الأمراء المماليك الكبار يتطلع للوصول لكرسي العرش، وغالبا ما كان يكون الأمير الأكثر نفوذاً من الناحية العسكرية والمادية هو الأقدر على النجاح في الظفر بهذا المنصب. انظر: J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 27

(3) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 725.

(4) F. Fabri, *Op. cit.*, p. ٦٦٦ ; Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 22, 171-172 ; C. Passi, *Op. cit.*, p. 22b.

الرقيق [١]. وبصفة عامة اتسمت حياة هؤلاء الأشخاص بالمشقة والعناء؛ فقد احسوا في أنفسهم بأنهم طبقة مهمشة ليس لها أن تختلط ببقية الناس، ولا يجوز لهم أن يدخلوا في محادثات أو مناقشات مع أسيادهم، وكان يقدم لهم أردأ أنواع الطعام، أضف إلى ذلك أن أصابع الاتهام كانت تشير بداية إلى هؤلاء الرقيق في حالة وقوع أية حادثة أو مشكلة. هذه الحياة البائسة دفعت أفراد تلك الطبقة إلى محاولة الهروب من أسيادهم، إلا أن تلك المحاولات غالباً ما كانت تبوء بالفشل، وفي هذه الحالة- بعد عودتهم إلى سيدهم- كانت معاناتهم تصبح أكثر شدة[٢].

أما السكان المحليون في الأسكندرية- والذين يسمون بعامة المجتمع- فقد كانوا يشكلون العنصر السكاني الأكبر عدداً داخل المدينة، وكان معظمهم من المسلمين [٣]. وبطبيعة الحال فلا يمكن مقارنة أفراد هذه الطبقة بالعناصر المملوكية من حيث المكانة والمنزلة الاجتماعية؛ فقد قبعت الغالبية العظمى من أفراد هذه الفئة في مؤخرة السلم الطبقي ومنهم كانت تتشكل فئة العمال والحرفيين والمزارعين [٤]. والزي المعتاد بالنسبة لهؤلاء السكان كان عبارة عن قميص مصنوع من الصوف الأبيض أو الكتان أو الحرير بحسب مكانة الشخص ومقدرته، وكان الرداء من الطول بحيث إنه كان يصل إلى القدم. كما أنهم كانوا يضعون على رؤسهم عمامات بيضاء مصنوعة من الصوف، والتي تميزت بحجمها الكبير، "بحيث إنه يقال إن طول تلك العمامة كان يصل أحيانا إلى ما يقارب الخمسين ذراعا" [٥]. وقد ذكر أحد الرحالة أن غالبية هؤلاء السكان- رجالا ونساء- كانوا ذوي بشرة سمراء داكنة، وأن نسبة أصحاب البشرة البيضاء لا تتجاوز العشر من إجمالي عدد السكان [٦].

---

(1) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 701.
(2) F. Fabri, *Op. cit.*, p. ٧٠٢.
(3) L. Legrand, *Op. cit.*, p. 588.
(4) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 685 ; L. Legrand, *Op. cit.*, p. 591-592.
(5) L. Legrand, *Op. cit.*, p. 587-588 ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 171.
(6) L. Legrand, *Op. cit.*, p. 589.

وبالنسبة للنساء وأوضاعهن داخل المجتمع، فإننا نجد حديثا مختصرا من جانب الرحالة الغربيين فيما يخص هذا الأمر؛ فهم يذكرون أنه قد جرت العادة بأن تخرج المرأة إلى شوارع المدينة وأسواقها وهي ترتدي غطاء (حجابا) أسود وتضع "برقعا" على وجهها، بحيث إنها "كانت ترى الآخرين دون أن يستطيع أحد رؤيتها"[١]. من ناحية أخرى فإن النساء كان لديهن إهتمام كبير بملابسهن وزينتهن؛ فقد كانت الواحدة منهن ترتدي جلباباً أبيض وتضع عمامة *turban* من الحرير على رأسها، وقد تميزت تلك العمامة بزينتها وزخرفتها، كما أنها كانت محلاة بالذهب والأحجار الكريمة. وكانت زوجات الأمراء المماليك وبعض الأثرياء يذهبن أسبوعيا إلى بعض النسوة المتخصصات في العناية بالجسم وشعر الرأس [٢].

٢/٢ أوضاع أهل الذمة داخل المجتمع

عند تعرض الرحالة للحديث عن المسيحيين وأحوالهم داخل الأسكندرية نجدهم يفرقون بين ثلاث طوائف مختلفة: أولا- المسيحيون الغربيون (الفرنجة أو الكاثوليك) القادمون إلى المدينة بهدف ممارسة التجارة؛ وهم أفراد غير مستقرين استقراراً دائماً بالمدينة، وإنما كانوا يقضون عدة أشهر ثم يعودون إلى بلادهم، وذلك باستثناء قناصلتهم الذين كانوا يقيمون في الفنادق، والذين كانت تصل أحيانا مدة إقامتهم داخل المدينة إلى ثلاث سنوات [٣]. الطائفة الثانية هم المسيحيون اليونانيون *les Grecs* الذين امتلكوا داخل المدينة كنائس شهيرة منها *Saint-Marc* و *Saint-Saba*. أما الطائفة الثالثة- والتي دار حولها اهتمام الرحالة-

---

(1) E. Adler, *Op. cit.*, p. 171 ; L. Legrand, *Op. cit.*, p. 589.

(2) E. Adler, *Op. cit.*, p. 159 ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 171.

(٣) يذكر فرسكوبالدي أن هناك بعض التجار الأوربيين كانوا يصطحبون معهم أسرهم للإقامة داخل الأسكندرية، ومنهم من اعتنق الإسلام؛ فقد أشار هذا الرحالة إلى أنه قام بمقابلة كبير التراجمة وهو تاجر بندقي الأصل وفد إلى مصر واعتنق الإسلام وتزوج من ابنة أحد الفلورنسيين الذي كان قد دخل في الدين الإسلامي في وقت سابق. ورغم عدم إفصاح هذا الرحالة- أو أي من المصادر الأخرى- عن اسم هذا التاجر البندقي أو مدة إقامته داخل المدينة إلا أن السياق الذي ذكرت فيه هذه القصة يدل على أن هذا الأمر كان غريبا وغير مألوف في ذلك الوقت، وهو الأمر الذي يؤكد على أن إقامة الأجانب الأوربيين في مصر لم تكن إقامة دائمة. انظر: T. Bellorini, *Op. cit.*, p. 44-45

فهم المسيحيون اليعاقبة [١]، وهم مسيحيو المدينة الذين ولدوا ونشأوا فيها هم وآباؤهم منذ القدم. وقد أكد الرحالة على التواجد الملحوظ للمسيحيين اليعاقبة داخل المدينة، وكان التجمع الأكبر لهم بجوار كنيسة القديس مارك[٢]. والكنيسة التي كان يقيم فيها هؤلاء المسيحيون صلواتهم ومراسمهم الدينية كانت تسمى بسان ميشيل *Saint-Michel*، وهي كنيسة كبيرة وقديمة وقد أعيد بناؤها أكثر من مرة[٣]. ويذكر فابري أن هذه الكنيسة كانت تشتمل كذلك على أماكن يدفن بها مسيحيو الغرب الأوربي [٤].

وقد احترف أفراد هذه الطائفة الأخيرة مهنة التجارة والأعمال الحرفية، كما أنهم التزموا بحمل الجزية إلى السلطان المملوكي بالقاهرة [٥]. وقد جرت العادة بأن يرتدي مسيحيو المدينة قمصاناً بيضاء من الصوف كباقي أفراد المجتمع من المسلمين، إلا أنهم- من باب التمايز- ألزموا بأن يضعوا على رؤسهم عمامة زرقاء[٦]. كما أن الطوائف المسيحية واليهودية لم يكن لها الحق في ركوب الدواب، كالخيول التي خصصت لطبقة المماليك، أو حتى الحمير والبغال والتي كان يمتطيها المقتدرون من السكان المسلمين[٧]. وقد أشار أنسلم أدورنو إلى أن المسيحيين داخل المدينة كانوا منخرطين داخل المجتمع ويسيرون على نفس

---

[١] اليعقوبية أو اليعاقبة هم الجماعات المسيحية التي اعتنقت العقيدة المونوفيزية، المنادية بالطبيعة الواحدة في المسيح، والتي سميت رسمياً بالكنيسة السريانية، وهي ترجع إلى نشأة المسيحية في القرن الأول الميلادي، ورعاياها منتشرون في سوريا وفلسطين وبلاد ما وراء النهر ومصر، أما التسمية فقد جاءت في القرن السادس الميلادي نسبة إلى الأسقف يعقوب البرادعي الذي فر من القسطنطينية ومن اضطهاد الامبراطور جستنيان بمساعدة تيودورة زوجة الإمبراطور والتي يقال إنها ابنة لأحد الكهنة السريان، ولجأ يعقوب البرادعي إلى بلاد الملك الغساني العربي الحارث بن جبلة وخليفته المنذر، حيث قام بنشر التعاليم المسيحية. انظر: عزيز سوريال عطية، *تاريخ المسيحية الشرقية*، (ترجمة) إسحاق عبيد، المجلس الأعلى للثقافة-القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٢٢٠-٢٢٣.

[2] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 690 ; F. Suriano, *Il trattato di terra et dell Oriente di Frate Francesco Suriano, Missionario e viaggiatore del secolo VX (Siria, Palestina, Arabia, Egitto, Abissinia)*, Traduction : C. Burri et N. Sauneron, éd. G. Golubovich, Milano, 1990, p. 186 ; M. Baumgarten, *Op. cit.*, p. 392.

[3] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 691 ; Jean-Léon L'Africain, *Op. cit.*, p. 497.

[4] F. Fabri, *Op. cit.*, p. 691.

[5] Jean-Léon L'Africain, *Op. cit.*, p. 498.

[6] L. Legrand, *Op. cit.*, p. 588 ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 165.

[7] J. Heers, *Op. cit.*, p. 171.

العادات والتقاليد التي يتبعها السكان المسلمون، كما أنهم كانوا يتحدثون بلغتهم، وقلما نجد اختلافاً أو تمايزاً ما بين الطرفين إلا فيما يخص الملبس والمظهر العام[١].

ولم نعدم وجودا للجالية اليهودية داخل المدينة، حتى وإن كان عددهم لا يمكن مقارنته بالوجود الإسلامي أو المسيحي. وقد أشار أحد الرحالة إلى أنه كان يوجد بالأسكندرية- مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري- ما يقارب الستين أسرة يهودية، مؤكدا أنه في الأزمان السابقة كان العدد يصل إلى الأربعة آلاف أسرة [٢]. ويذكر هذا الرحال أن هؤلاء اليهود يتشابهون مع البدو في لباسهم وعاداتهم؛ فكانوا يمشون وهم حفاة، ولا ينامون أو يأكلون إلا على الأرض، كما كان لهذه الطائفة معبدها الخاص (الكنيس) الذي تمارس فيه شعائرها الدينية [٣]. وبحسب العادات والأوامر التي كانت متبعة آنذاك فإن هؤلاء اليهود كانوا يلبسون عمامة صفراء تمييزا لهم عن بقية السكان من المسلمين والمسيحيين [٤]. وقد التزم هؤلاء اليهود بحمل ضريبة سنوية "الجزية" إلى البلاط السلطاني بالقاهرة [٥]. كما أن بعضا من أفراد تلك الطائفة كانوا قد تمكنوا من شغل بعض المناصب المهمة داخل المدينة؛ فيذكر أحد الرحالة أن واحداً من هؤلاء اليهود كان معينا في منصب "المترجم" الخاص للحاكم [٦].

٣/٢ عادات وأخلاق أهالي الأسكندرية

يذكر الرحالة أن سكان الأسكندرية كانوا يتمتعون بخلال وصفات طيبة؛ من ذلك كرمهم ومساعدتهم للغرباء؛ فيروي لنا فابري أنه ورفقاءه عند قدومهم إلى أبواب المدينة واجهوا صعوبات كثيرة من قِبَل الحراس، الذين أجبروهم على أن يناموا ليلتهم خارج المدينة، وفي الوقت الذي كان فيه هؤلاء الغربيون يعانون من

---

(1) J. Heers, *Op. cit.*, p. 165.
(2) E. Adler, *Op. cit.*, p. 161.
(3) *Ibid.*
(4) L. Legrand, *Op. cit.*, p. 588 ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 167.
(5) J. Heers, *Op. cit.*, p. 167.
(6) Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 22.

شدة الجوع نظراً لعدم وجود أطعمة معهم، حمل إليهم بعض السكان الخبز والتمر والمياه، وهو الأمر الذي جعل هذا الحاج يأخذ انطباعا جيدا عن أهالي المدينة [1]. كما يذكر بعض الرحالة أن أهالي المدينة لم يكن لديهم ميل لشراء الخمور وشربها، "بل إنهم كانوا يكرهون رؤية المسيحيين (الأوربيين) وهم يدخلون إلى مدينتهم بزجاجات الخمور"، وأنهم لم يكن ليرضوا بذلك لولا الأوامر الصادرة من حاكم المدينة بالسماح للقناصلة الأوربيين بجلب وإدخال الخمور إلى فنادقهم [2].

ويمكن لنا أن نلحظ من خلال كتابات الرحالة ظهور نوع من أنواع التكافل الاجتماعي ما بين سكان المدينة في ذلك الوقت؛ فقد جرت العادة بأن يقوم أغنياء وأثرياء المدينة بإعداد وليمة كبيرة في يوم الجمعة من كل أسبوع، يدعون إليها الفقراء والمحتاجين، كما أن الأمراء كانوا يقومون بتوزيع الأموال والهدايا على هؤلاء الفقراء خلال تلك المناسبات[3]. ونستطيع أن نلمح كذلك على نزعة الوازع الديني لدى السكان من خلال إشارة هؤلاء الرحالة إلى كثرة المساجد الموجودة بالمدينة وارتياد الأهالي لها؛ فقد أشار مشولام إلى أنه بالقرب من قلعة المدينة فقط كان يوجد أكثر من عشرين مسجداً[4]. كما أن لانوني ذكر عدداً من المساجد الواقعة بالقرب من ميناء المدينة [5]. الأمر نفسه أشار إليه أنسلم أدورنو، مؤكداً على وجود العديد من المساجد المشيدة على اللسان الأرضي الفاصل ما بين مينائي المدينة [6].

وقد كانت هناك مقابر مخصصة لدفن الموتى خارج المدينة، وبحسب العادات والأعراف الاجتماعية فقد كان هناك جمع غفير من الأهالي يتبعون هذه الجنازة ويقومون بدفنها. وفي حالة كون الشخص المتوفى من الأثرياء والوجهاء،

---

(1) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 659-660.
(2) L. Legrand, *Op. cit.*, p. 589.
(3) E. Piloti, *Traité*, p. 89.
(4) E. Adler, *Op. cit.*, p. 158.
(5) Ch. Potvin, *Op. cit.*, p. 104-105.
(6) J. Heers, *Op. cit.*, p. 161.

فإن أهله كانوا يقومون بذبح عدد من "الخرفان" وتوزيعها على الفقراء، إلى جانب منح هؤلاء الفقراء كثيراً من العطايا النقدية [1].

٤/٢ دور المدينة وطرقاتها:

تميزت منازل الأسكندرية بجمالها وفخامتها، وتعد الأحجار هي المادة الأساسية التي استخدمت في بناء هذه الدور، وكان الأهالي يقومون بطلاء منازلهم من الداخل برسومات وألوان زرقاء "تحمل لون البحر". كما كان من المعتاد أن يحتوي المنزل على فناء فسيح مبلط بالأحجار ومزين ببعض الزهور والأشجار، وفي منتصف هذا الفناء كان يوجد صهريجان صغيران: أحدهما لتخزين المياه القديمة والآخر لتخزين المياه الجديدة، والتي كان يبدأ وصولها مع بداية موسم فيضان نهر النيل [2].

وبصفة عامة اتسمت معظم شوارع المدينة وطرقاتها بالضيق وذلك بالرغم من طولها والذي كان يصل أحيانا لميلين أو ثلاثة، باستثناء شارعين أو ثلاثة تميزت باتساعها، وذلك نظرا لاشتمالها على العديد من الأسواق والمحلات التجارية[3]. ويعد شارع سان مارك *Saint-Marc* من أشهر شوارع المدينة وأكثرها جمالاً على الاطلاق، فهو يعد الشارع الأكثر سعة وطولاً على مستوى المدينة بأكملها. وقد اكتسب هذا الشارع تلك الأهمية من كونه سوقاً تجارياً مزدهراً يقصده كل أهالي المدينة، حتى أنهم كانوا يسمونه بـــ"البازار الكبير"، إلى جانب اشتماله على بنايات تميزت بالفخامة والروعة[4]. بالإضافة إلى ذلك فإن هذا الشارع كان مكاناً مفضلاً للمسيحيين الغربيين الوافدين إلى المدينة، وذلك نظراً لاشتماله على العديد من الكنائس والمزارات الدينية المهمة بالنسبة لهم [5]. وكان من المعتاد عند قدوم أي غربي إلى المدينة وفي حال رغبته القيام بجولة لزيارة

---

(1) T. Bellorini, *Op. cit.*, p. 41.
(2) E. Adler, *Op. cit.*, p. 160 ; Ch. Potvin, *Op. cit.*, p. 105 ; Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 173.
(3) Ch. Potvin, *Op. cit.*, p. 107 ; L. Legrand, *Op. cit.*, p. 588 ; Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 172.
(4) J. Heers, *Op. cit.*, p. 165 ; F. Bonnardot, *Op. cit.*, p. 78.
(5) J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 115 ; F. Bonnardot, *Op. cit.*, p. 78 ; H. Moranville, *Op. cit.*, p. 32.

بعض الأماكن في ضواحيها فإنه كان يتعين عليه القيام بدفع نصف دوكات للموظفين المختصين، ولم يستثن من هذا الأمر سوى الحجاج المسيحيين الذين كان يتوجب عليهم بداية الحصول على خطاب رسمي من حاكم المدينة ودفع مبلغ كبير من المال [1].

يتبقى الإشارة إلى أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري بدأ عدد السكان في المدينة يشهد تناقصاً ملحوظاً، وقد أرجع الرحالة السبب في ذلك الأمر إلى سوء سياسة ومعاملة السلطات المملوكية للأهالي وتحميلهم بالضرائب الباهظة، وهو الأمر الذي دفع عدداً كبيراً من السكان لهجر المدينة ومغادرتها، حتى أن بيلوتي كان يسمي الأسكندرية آنذاك "بالمدينة المهجورة" [2]. وعلى هذا فإنه يمكننا القول بأن عدد سكان المدينة مع نهاية القرن الرابع عشر الميلادي/الثامن الهجري والذي بلغ- بحسب رواية فرسكوبالدي- ستين ألف شخص قد شهد تراجعا ملحوظاً في القرن التالي [3]. وهذا الأمر نفسه أكده مارتوني الذي كان موجوداً في الأسكندرية عام ١٣٩٤م/٧٥٠هـ؛ حيث إنه يصف المدينة وشوارعها بأنها مكتظة بالسكان، مضيفا أن المرء لا يستطيع السير في الشارع دون أن يصطدم بشخص آخر من كثرة الزحام [4]. وقد كان لتناقص عدد السكان تأثير كبير على حركة بيع وشراء البنايات (العقارات) داخل المدينة؛ فيذكر بيلوتي أن المنزل الذي كانت تصل قيمته سابقاً إلى ثلاثة أو أربعة آلاف دوكات لم يعد يقدر الآن- أي خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري- إلا بأربع مائة دوكات [5].

---

(1) J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 122 ; J. Heers, *Op. cit.*; p: 173.

(2) E. Piloti, *Traité*, p. ٩٢; Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 173 ; C. Passi, *Op. cit.*, p. 22-23.

(3) T. Bellorini, *Op. cit.*, p. 39.

(4) L. Legrand, *Op. cit.*, p. 588.

(5) E. Piloti, *Traité*, p. 92.

٣-الحياة الاقتصادية

١/٣ النشاط التجاري

عند الحديث عن هذا النشاط السكاني يلزم التأكيد بداية على أن التجارة كانت تمثل العمود الفقري الذي كان يقوم عليه اقتصاد المدينة بل اقتصاد مصر بصفة عامة[١]. لذا فقد وجدنا الرحالة الأوربيين يفردون عدداً كبيراً من صفحات مؤلفاتهم للحديث عن تلك التجارة والصلات التي ربطت بين الأسكندرية وبين المدن التجارية الغربية، بالإضافة للحديث المسهب عن أوضاع تلك الجاليات الغربية داخل المدينة وأهم المنشآت التي كانوا يقيمون ويمارسون فيها عملياتهم التجارية.

ومدينة الأسكندرية كانت هي النقطة الرئيسة التي تتجمع فيها بضائع الشرق، "ففيها كان يوجد كل أنواع التوابل والعطور، والأحجار الكريمة والمجوهرات، وكل بضائع الشرق الثمينة والعجيبة" [٢]. وقد ذكر بيلوتي أن الأسكندرية "تمثل المنفذ الرئيسي الذي تستطيع أن تتزود منه مصر بكل ما تحتاجه من منتجات، كما أنها تعد بمثابة المخرج والمدخل للقاهرة ولمصر كلها، وبدونها لا تستطيع هذه البلاد أن تعيش" [٣]. ويؤكد بيلوتي وأنغيرا على هذا الأمر قائلين: إن أهم مدينتين تجاريتين على الإطلاق داخل الدولة المملوكية هما الأسكندرية ودمشق [٤]. وللتأكيد على أهمية الأسكندرية بالنسبة لاقتصاد دولة المماليك البرجية يذكر جون تنود أن جملة الضرائب المحصلة على التجارة الواصلة إلي تلك المدينة كان يدر سنويا لخزينة الدولة ما يزيد عن مائين وخمسين ألف أشرفية ذهبية [٥].

كما لعبت الأسكندرية دوراً مهماً كوسيط تجاري بين بلاد الشرق والغرب؛ فقد كانت السفن التجارية القادمة من بلاد الهند والسواحل الأفريقية تسلك طريق

---

(1) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 9, 54 ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 161 ; J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 113.
(2) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 722 ; M. Baumgarten, *Op. cit.*, p. 392.
(3) E. Piloti, *Traité*, p. 27.
(4) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 109 ; E. Piloti, *Traité*, p. 226 ; C. Passi, *Op. cit.*, p. 23.
(5) Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. 27.

البحر الأحمر وصولا إلى ميناء الطور في جنوب شبه جزيرة سيناء، وتحمل البضائع من هناك على ظهور الجمال حتى تصل إلى نهر النيل، ثم تنقل عبر السفن إلى الأسكندرية، حيث تكون أساطيل المدن الغربية في انتظارها لتحملها بدورها إلى بلاد الغرب الأوربي(١). وقد أشار أدورنو إلى أهمية التجارة القادمة من بلاد الهند بالنسبة للأسكندرية، مؤكدا على أن هذه المدينة أصبحت في ذلك الوقت هي المتحكم الرئيسي في جميع أنواع التوابل بلا منافس؛ فأثناء وجود هذا الرحال بالمدينة وصلت قافلة تجارية مكونة من عشرين ألف جمل كلها محملة بأنواع التوابل المختلفة القادمة من بلاد الهند عبر البحر الأحمر، "والتي بلغت قيمتها ما يقارب المائة مليون دوكات*cent mille millier ducats*" (٢). من ناحية أخرى مثـــــل وقت فيضان النيل أهمية كبيرة للمدينة من الناحية التجارية؛ فقد كان يصل إليها خلال تلك الفترة شتى أصناف السلع القادمة من مدينة القاهرة على متن المراكب النيلية *germes*، ويأتي على رأس تلك البضائع التوابل الهندية، بالإضافة إلى الأصواف والقطن والسكر والدقيق (٣).

وقد تميزت أسواق المدينة بجمالها وروعتها، بحيث إنها كانت مكاناً ومزاراً مفضلاً لكل من يأتي إلى المدينة. وكان يوجد بها عدد كبير من البازارات التي كانوا يسمونها آنذاك "بالبوتيكات" (٤). وذكر فابري أن تلك الحوانيت والأسواق- إلى جانب المساجد وبيوت الأمراء المماليك- تعد هي البنايات الأكثر جمالاً وفخامة داخل الأسكندرية (٥). ومن فرط اندهاشه من رواج الحركة التجارية داخل تلك الأسواق نجد فابري يصفها بأنها "المكان الذي يتجمع فيه الناس من الشرق والغرب على السواء، والسوق المفتوح لكل العالم" (٦). كما أن ليون الإفريقي يذكر

(1) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 722 ; E. Piloti, *L'Egypte*, p. 57, 75 ; E. Piloti, *Traité*, p. 124, 160 ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 167.
(2) J. Heers, *Op. cit.*, p. 167.
(3) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 83 ; E. Piloti, *Traité*, p. 183 ; F. Suriano, *Op. cit.*, p. 182-183.
(4) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 959 ; Ch. Schefer, *Op. cit.*, p. ١٧٤.
(5) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 959.
(6) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 722.

أنه رأى وصول السفن التجارية القادمة من مختلف البلدان الأوربية مثل الفلاندر وانجلترا والبرتغال، إلا أنه يشير إلى أن العدد الأكبر من تلك السفن كانت تنتمي إلى المدن التجارية الإيطالية [١]. أما جيستيل فقد أضاف إلى تلك القائمة التجار القادمين من بلاد العرب وبلاد فارس وبلاد الأتراك وبلاد الحبشة وبلاد التتر وكل بلاد الشرق [٢].

وانطلاقا من ارتباط التجارة وطرقها بالأحداث السياسية الدائرة في ذلك الوقت، فقد أشار بيلوتي إلى أنه منذ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي/الثامن الهجري اكتسبت مدينة الأسكندرية مزيداً من الأهمية التجارية، وهذا الأمر يعود بالدرجة الأولى إلى سيطرة مدينة جنوة الايطالية على جزيرة قبرص، ومنعها قدوم أي سفينة تجارية أوربية إلى موانيء تلك الجزيرة وبصفة خاصة ميناء فاماجوستا *Famagoste*، وهو الأمر الذي دفع تجار تلك المدن إلى الإبحار باتجاه مينائي الأسكندرية وبيروت من أجل الحصول على ما يحتاجونه من بضائع وسلع الشرق [٣].

وتعد البندقية هي المدينة الأوربية الأكثر أهمية وشهرة من حيث التواجد والنشاط التجاري داخل الأسكندرية. تلك المكانة المميزة التي احتلتها هذه المدينة يمكن ملاحظتها من خلال المميزات والتسهيلات التجارية الكثيرة التي كان يمنحها السلاطين المماليك للتجار البنادقة دون غيرهم من الجنسيات الأخرى [٤]. ويروي فابري قصة تبين مدى نفوذ البنادقة داخل المدينة قائلا: إنه كان هناك رجل من أهالي المدينة يقف إلى جانب بضاعة تخص التجار البنادقة، وخوفاً من سرقتها أمره العمال والحراس بالابتعاد عن المكان، إلا أنه رفض هذا الأمر ودخل معهم في مشاجرة طويلة، فما كان من أحد التجار البنادقة الذي تصادف وجوده في المكان إلا أن قام بالاعتداء على الرجل، وأوسعه ضرباً بالأيدي والأرجل ثم قام

---

(1) Jean-Léon L'Africain, *Op. cit.*, p. 496.
(2) J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 112.
(3) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 55-57.
(4) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 697.

بطرده من المكان، دون أن يعير اهتماماً لأهالي المدينة الذين كانوا يشاهدون الواقعة. ويعقب فابري على تلك الحادثة بقوله: "إنه لو قام أحد الأوربيين بهذا الفعل- حتى لو كان ملكاً أو أميراً- لسجن في الحال" (١). كما أن قنصل البندقية كان له من المكانة ما يسمح له بالتوسط لدي السلطات المملوكية من أجل العفو عن بعض الأوربيين القابعين في السجن (٢).

وقد تعددت السلع والبضائع التي كان يحملها التجار البنادقة على متن سفنهم إلى المدينة، والتي كانت تشمل معظم ما يتميز به الغرب الأوربي من منتجات، ويأتي على رأس تلك السلع الأقمشة الصوفية الشهيرة « *draps de laine* » التي كانت تأتي من بلاد الفلاندرز، هذا إلى جانب العنبر والقصدير والزجاج (٣). وكذلك حمل التجار البنادقة من منطقة لمبارد *Lambardie* الزعفران والعسل، ومن الأراضي السلوفينية الحرير والمرجان، ومن جزيرة رودس العسل "ذو الجودة العالية" (٤). كما أنهم بحكم سيطرتهم على جزيرة كريت منذ القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري حمل البنادقة إلى أسواق الأسكندرية كميات كبيرة من الجبن والعسل والشموع (٥). أما عن أهم السلع التي كانت تحملها السفن البندقية من الأسكندرية فيأتي على رأسها التوابل، والتي كانت تصل عن طريق هذه المدينة إلى كل أنحاء أوربا (٦). ونظراً لأهمية هذه السلعة في ذلك الوقت فإن بيلوتي يقول: "إن الغرب الأوربي لا يستطيع العيش بدون الحصول على البضائع المصرية، وعلى رأسها التوابل" (٧).

كما كان هناك وجود ملموس كذلك لمدينة جنوة الايطالية- المنافس المباشر لمدينة البندقية- داخل مدينة الأسكندرية، وتعود الأهمية التجارية لهذه المدينة مع

---

(1) *Ibid.*
(2) H. Thucher, *Op. cit.*, p. 57a.
(3) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 64-65, 68 ; E. Piloti, *Traité*, p. 145.
(4) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 68-69, 73 ; E. Piloti, *Traité*, p. 144-145.
(5) E. Piloti, *Traité*, p. 158.
(6) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 68 ; H. Thucher, *Op. cit.*, p. 59b.
(7) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 68.

الدولة المملوكية إلى أنها كانت بمثابة المصدر الأساسي الذي زود سلاطين مصر بما يحتاجونه من مماليك ورقيق ينتمون إلى الأصول الروسية والجركسية والتترية، وهذا يعود بالدرجة الأولى إلى سيطرة تلك المدينة الإيطالية على مدينة كافا *Caffa* وعدد من المدن الروسية، وهي المناطق التي كان يوجد بها هؤلاء الرقيق. وعلى هذا فقد كانت السفن الجنوية تأتي إلى الأسكندرية سنوياً وهي محملة بعدد كبير من تلك السلعة المربحة لهم والضرورية لحكام مصر [1].

وبحكم سيطرتها على جزيرة قبرص منذ عام 1373م/٧٤-٧٧٥هـ فإن تجار تلك المدينة كانوا يحملون إلى الأسكندرية الأقمشة الصوفية القبرصية *camelots* ذات القيمة الكبيرة، وهو المنتج الأكثر أهمية لتلك الجزيرة في ذلك الوقت [2]. وعلى متن السفن الجنوية كانت تصل كذلك العديد من السلع والبضائع الأوربية الشهيرة، والتي من أهمها البندق الذي كان يسمى *noisettes de vintemille*، كما قام هؤلاء التجار بحمل بضائع الفلاندرز وصقلية ونابولي وغيرها من المدن الأخرى التي لم تكن تمتلك سفناً تجارية تبحر بها باتجاه السواحل المصرية [3]. وفي المقابل كانت التوابل تعد السلعة الرئيسية التي كان يحملها تجار جنوة من أسواق الأسكندرية [4].

بيد أنه يجب الإشارة إلى أنه منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري شهدت العلاقات التجارية بين جنوة والسلطات المملوكية نوعاً من التوتر والفتور، هذا الأمر يعود بالدرجة الأولى إلى ما قام به حاكم المدينة القائد بوسيكوت *Boucicut* من مهاجمة مدينة الأسكندرية بأسطول مكون من عشر سفن حربية، تحمل كل واحدة منها مائتين وخمسين محارباً. ولما لم تنجح هذه الحملة في تحقيق هدفها ولم تتمكن من الوصول إلى سواحل المدينة بسبب سوء الأحوال الجوية وعدم ملاءمة حركة الرياح، فإن القائد الجنوي اتجه إلى الساحل

---

(1) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 64 ; E. Piloti, *Traité*, p. 34.

(2) E. Piloti, *L'Egypte*, p. ٧٤.

(3) E. Piloti, *Op. cit.*, p. ٦٧ ; E. Piloti, *Traité*, p. 149.

(4) E. Piloti, *Traité*, p. 149.

السوزي وقام بمهاجمة مدينة بيروت واستولى على كثير من الغنائم والبضائع. وكرد فعل سريع فإن السلطات المملوكية ألزمت التجار الجنويين المقيمين بالأسكندرية والقاهرة بحمل الأموال كتعويض عن الخسائر التي لحقت ببيروت، ولم يقبل السلطان الناصر فرج بن برقوق بعرض الصلح الذي تقدم به الجنويون إلا بعد الحصول على تلك الأموال. ويؤكد بيلوتي أنه منذ تلك الحادثة أصبح الحذر والحيطة هو السمة السائدة لدى السلطات المملوكية تجاه الجنويين المقيمين بمصر [١].

أثناء وجود فابري بالمدينة شاهد وصول سفينة تجارية قادمة من مدينة أمالفي الايطالية، وقد ذكر أن أهم سلعة تجارية كانت تحملها هذه السفينة هي "البندق"، ذاكراً أن بلاد الشرق بصفة عامة كانت لا تقوم بزراعة أشجار البندق، وذلك بسبب درجة الحرارة المرتفعة في تلك المناطق، لذلك كانت تعتمد على استيراده من البلدان الأوربية، مؤكدا كذلك أن تلك السلعة- لهذا السبب- كان مرغوباً فيها في مصر وبلاد الشام [٢]. وقد تخصص تجار أمالفي في حمل تلك السلعة إلى هذه البلاد، مستفيدين ومدفوعين بالأرباح الطائلة التي كانوا يحققونها من وراء هذه التجارة [٣].

ولم تتأخر السفن الكتلونية في الوصول إلى شواطيء الأسكندرية، وإن كان ظهورها وتواجدها يقل كثيراً عن تواجد السفن التجارية الإيطالية. وقد كانت الزيوت التي اشتهرت بها مدينة أشبيلية وجزيرة مايوركا، إلى جانب الأقمشة الصوفية واللؤلؤ والعسل تمثل السلع الرئيسية التي حملها التجار الكتلونيين إلى الأسكندرية[٤]. ولم ينس بيلوتي أن يشير إلى أن السلطات المملوكية بدأت في قطع صلاتها التجارية مع الكتلونيين، ورفضت استقبال أي بضائع تصل من تلك البلاد، ويعود السبب في هذا الأمر إلى ممارسة بعض الكتلونيين لأعمال القرصنة ضد

---

(1) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 84-95.
(2) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 675.
(3) F. Fabri, *Op. cit.*, p. ٦٧٧.
(4) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 65-66.

السفن التجارية الإسلامية المبحرة في مياه البحر المتوسط والراغبة في الوصول إلى سواحل مدينة الأسكندرية [١]. ففي عام ١٤٠٨م/١٠-٨١١هـ قامت إحدى السفن الكتلونية بشحن كميات كبيرة من البضائع التي كانت ملكاً لعدد من التجار المغاربة، والذين قاموا بتأجير تلك السفينة من أجل نقلهم إلى السواحل التونسية. بيد أن قائد السفينة الكتلوني توجه بهؤلاء التجار إلى سواحل بلاده، وقام هناك ببيع هؤلاء التجار كرقيق، وربح كثيراً من وراء بيع البضائع التي كان يحملها. فلما وصلت أخبار تلك الحادثة إلى السلطان الناصر فرج أمر القنصل الكتلوني وبقية أفراد جاليته المقيمين بالأسكندرية بدفع قيمة تلك البضائع المنهوبة، بالإضافة إلى مبلغ آخر لأهل التجار المغاربة الذين بيعوا كرقيق [٢]. وإذا كان السلطان فرج قد تخلى عن هذه العقوبة بعدما اقتنع بحجة القنصل الكتلوني بأن حاكم تونس هو المسئول عن البحث عن حقوق هؤلاء التجار وتعويضهم عما فقدوه، إلا أن تلك القضية أعيد عرضها لاحقا أمام السلطان المؤيد شيخ، وقد انتهى الأمر بالزام الكتلونيين بدفع مبلغ مالي يصل إلى ٣٠٠٠٠ دوكات للمغاربة، على أن يقوم الكتلونيون المقيمون بالأسكندرية بتحمل نصف المبلغ بينما يقوم أولئك الموجودون بدمشق بدفع النصف الآخر [٣].

من ناحية أخرى يذكر بيلوتي أن هناك علاقات تجارية مميزة ربطت ما بين الأسكندرية وبين بلاد المغرب العربي وبصفة خاصة تونس، بحيث إنه كان يصل إلى المدينة سنويا من ثماني إلى عشرة سفن تجارية قادمة من تلك البلاد. ومن أهم السلع التي كانت تحملها تلك السفن الزيوت والزبيب والأغطية والألحفة الصوفية البيضاء إلى جانب عدد كبير من الرقيق السود، والذين كان يصل عددهم أحيانا إلى ألف وخمسمائة [٤]. والضريبة المفروضة على تلك البضائع في جمرك الأسكندرية كانت تصل إلى ١٨% من قيمتها الاجمالية، ولم يكن باستطاعة هؤلاء

---

(1) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 66-67.
(2) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 110-111 ; E. Piloti, *Traité*, p. 229-230.
(3) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 111-112 ; E. Piloti, *Traité*, p. 230-231.
(4) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 57 ; E. Piloti, *Traité*, p. 134-135.

التجار حمل بضائعهم من الميناء قبل القيام بسداد قيمة هذه الضريبة[1]. وقد كان من المعتاد وصول التجار المغاربة إلى الأسكندرية مع نهاية شهر سبتمبر، ويستمرون في ممارسة عمليات البيع والشراء داخل المدينة طوال فترة الشتاء ولا يغادرونها إلا مع حلول شهر أبريل. ومن أهم السلع التي كانوا يحملونها معهم أثناء عودتهم إلى بلادهم التوابل والأقمشة القطنية والحريرية والمجوهرات[2]. وخوفاً من تعرضها لهجمات القراصنة في عرض البحر في حالة إبحارها منفردة، فإن تلك السفن كانت عادة ما تغادر المدينة مجتمعة وفي توقيت واحد[3].

كما استقبل ميناء الأسكندرية عدداً من السفن التجارية السورية القادمة من موانئ بيروت وطرابلس وأنطاكية، والتي كانت تحمل على متنها الأقمشة الدمشقية الشهيرة والصابون وماء الورد *l'eau de roses* والزبيب [4]. ولم تتخلف السفن التركية- التي تميزت بضخامتها- عن الوصول إلى الأسكندرية، وكانت تجلب معها الأقمشة الحريرية والشمع والجوز والعسل، بيد أن السلعة الأكثر أهمية القادمة من بلاد الأتراك تظل هي تجارة الرقيق نظراً لما كانت تمثله من أهمية لدولة المماليك [5].

وقد كان لكل مدينة تجارية فندقها [6] الخاص بها، حيث كان يقيم التجار وتخزن السلع التجارية [7]. وقد بين فابري مدى أهمية هذه الأماكن بقوله: "الفندق

---

(1) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 58 ; E. Piloti, *Traité*, p. 135.
(2) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 58 ; E. Piloti, *Traité*, p. 135.
(3) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 58.
(4) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 59 ; E. Piloti, *Traité*, p. 136.
(5) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 60 ; H. Thucher, *Op. cit.*, p. 60a.

(٦) الفندق *fondique* هي كلمة مأخوذة من اللغة اللاتينية *pandokeion*، وقد دخلت إلى اللغة الإيطالية في العصور الوسطى تحت مسمى *fondacho*. انظر:

E. Piloti, *L'Egypte*, p. 77, marge 1.

(7) J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 114 ; L. Legrand, *Op. cit.*, p. 587 ; F. Bonnardot, *Op. cit.*, p. 78.

يلزم التأكيد في هذا المقام على أن تلك المنشآت التجارية السكنية (الفنادق) كانت ملكا خاصا للسلطات المملوكية وهي صاحبة الحق الأصيل في منح أو منع أي من الجاليات الأوربية تلك المؤسسة؛ فقد حدث في عام ١٤٢٢م/٨٢٥هـ أن طلبت إحدى الجاليات الإيطالية- وهي فلورنسا- من السلطان المملوكي الأشرف برسباي الإقامة في فندق البيازنة بالأسكندرية على اعتبار أن بيزة كانت قد انضمت لفلورنسا ولذا فمن حق الجالية الفلورنسية الحصول على هذا

يعد بمثابة المنزل الذي تتجمع فيه كل أنواع البضائع، ومنه تنقل هذه السلع إلى كل الأماكن، مثلما تسيل وتتدفق المياه من ينابيعها" [١]. وقد انتشرت هذه الفنادق في شتى أنحاء المدينة وكانت من الكثرة بحيث إننا نجد العديد منها في الشارع الواحد[٢]. وبصفة عامة كانت هذه الفنادق تتخذ شكلا مربعا في بنائها، وهي تتشابه إلى حد كبير مع "الخانات" [٣].

ومن أهم الفنادق التي ذكرها الرحالة فندق الكتلونيين، حيث كان يقيم فيه التجار القادمين من مدينة برشلونة وإقليم كتلونيا الأسباني، كما كانت به أماكن مخصصة لتخزين بضائعهم ومشترواتهم [٤]. ويذكر فابري أن هذا الفندق كان هو المكان المخصص لاستقبال الحجاج الأوربيين القادمين إلى الأسكندرية، بعدما أعرض البنادقة والجنويين عن استقبالهم داخل فنادقهم، وقد أشاد بحسن الحفاوة والاستقبال التي أظهرها لهم القنصل الكتلوني عند وصولهم إلى الفندق [٥]. كما أنه وصف هذا الفندق بأنه متسع ويحتوي على فناء فسيح بالإضافة إلى العديد من الحجرات. وقد تميز هذا المبنى بارتفاعه الكبير، بحيث إن المرء الواقف في أعلاه كان يستطيع رؤية المدينة وميناءها [٦]. وقد اشتمل هذا الفندق كذلك على كنيسة صغيرة كان يمارس فيها الغربيون شعائرهم ويحتفلون فيها بأعيادهم الدينية [٧]. بيد أن الشيء الذي لاحظه فابري هو قلة عدد التجار الكتلونيين المقيمين بالفندق "والذي يكاد يكون فارغا"، بالإضافة إلى قلة تجارتهم، وقد ذكر أن السبب في هذا الأمر يعود بالدرجة الأولى إلى اتجاه الكتلونيين لممارسة أعمال القرصنة في

الفندق، بيد أن السلطان لم يوافق على هذا الأمر لأنه كان قد منحه للتركمان المسلمين، ثم إن قاضي الأسكندرية أفتى كذلك بعدم جواز منحه للأجانب بعدما صار في أيدي المسلمين. انظر: نعيم زكي، *طرق التجارة ومحطاتها الدولية*، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ٤٩.

(1) F. Fabri, *Op. cit*, p. 693.
(2) *Ibid.*
(3) J. Ghistele, *Op. cit*, p. 114.
(4) F. Fabri, *Op. cit*, p. ٦٦٦.
(5) F. Fabri, *Op. cit*, p. 666-667.
(6) F. Fabri, *Op. cit*, p. ٦٦٨, 670.
(7) F. Fabri, *Op. cit*, p. 671 ; J. Heers, *Op. cit*, p. 167.

البحر ضد السفن التجارية الإسلامية، وهو الأمر الذي جعلهم يخشون من رد فعل وانتقام السلطات المملوكية في حال وصولهم إلى الأراضي المصرية [١].

وإلى جانب فندق الكتلونيين كان يوجد فندق الجنويين، وهو يتميز "بسعته وروعة بنائه"، وبالقرب من فنائه الفسيح كانت توجد حديقة صغيرة تشتمل على صنوف شتى من النباتات النادرة [٢]. وبخلاف فندق الكتلونيين فقد تميز هذا الفندق باحتوائه على جالية كبيرة من التجار الجنويين، وقد اكتظت جنبات الفندق ببضائعهم وسلعهم التجارية [٣]. وكغيره من الفنادق الأوربية اشتمل كذلك فندق جنوة على كنيسة تميزت باتساعها وجمالها [٤].

أما التجار البنادقة فقد كانوا الجالية الأكثر أهمية بحكم تواجدهم الكثيف داخل المدينة، من هذا المنطلق فقد وجدنا البندقية هي المدينة الأوربية الوحيدة التي امتلكت فندقين داخل الأسكندرية [٥]. وفي معرض حديثه عن الفندق الأول يذكر فابري أنه لم ير مكاناً يمتلئ بشتى أنواع المنتجات التجارية مثلما رأى في هذا الفندق، "بحيث إن المرء بداخله لا يستطيع أن يجد مكاناً يتحرك فيه من كثرة هذه البضائع"[٦]. وكان يأتي إلى هناك تجار المدينة من المسلمين "أصحاب النفوذ والمكانة الكبيرة"، حيث كانوا يعقدون الصفقات التجارية مع البنادقة [٧]. واشتمل هذا الفندق كذلك على كنيسة صغيرة تميزت بالرسوم والزخارف فائقة الجمال [٨].
أما الفندق الثاني للبنادقة فقد تميز بكونه أكثر اتساعاً من سابقه، "وبداخله كانت تخزن كميات مدهشة من شتى أصناف البضائع، سواء تلك التي جلبوها معهم من منطقتهم أو تلك التي قاموا بشرائها من المدينة ويريدون حملها إلى بلادهم" [٩].
ومن الأشياء التي لفتت انتباه الرحالة أنه كان يوجد بداخل هذين الفندقين العديد من

---

(1) F. Fabri, *Op. cit*, p. 694.
(2) F. Fabri, *Op. cit*, p. 694 ; J. Heers, *Op. cit*, p. 167.
(3) F. Fabri, *Op. cit*, p. 694.
(4) F. Fabri, *Op. cit*, p. 691.
(5) J. Ghistele, *Op. cit*, p. 114 ; M. Baumgarten, *Op. cit*, p. 392.
(6) F. Fabri, *Op. cit*, p. 694.
(7) *Ibid.*
(8) F. Fabri, *Op. cit*, p. 691.
(9) F. Fabri, *Op. cit*, p. 695.

الطيور والحيوانات العجيبة، من ذلك الغزلان والأسود ذات الألوان الصفراء والنمور والقرود والنعام، بالإضافة إلى عدد من "الببغاوات الجميلة بألوانها البيضاء والحمراء والصفراء" [1]. ووجد بالأسكندرية كذلك فندق للتجار القادمين من مدينة نابولي الإيطالية، بالإضافة إلى الفندق الخاص بتجار مرسيليا القادمين من جنوب فرنسا[2].

وقد جرت العادة بأن تقوم السلطات المملوكية بغلق أبواب تلك الفنادق التي تقيم فيها الجاليات الأوربية عندما يحل المساء، وكانوا لا يفتحونها إلا بحلول صباح اليوم التالي، كما كان محرماً على هؤلاء الغربيين الخروج إلى الشوارع وقت صلاة الجمعة من كل أسبوع، ومن باب الحيطة والحذر فإن وقت الحبس هذا كان يمتد لساعتين أو ثلاث ساعات بعد الصلاة. وهذا الأمر يدل بلا شك على روح الريبة والشك التي كانت موجودة لدى سلاطين مصر تجاه هؤلاء الغربيين، والخوف من ارتكابهم أعمال تخريبية في البلاد، حتى وإن كان الهدف الظاهري هو المحافظة على حياة هؤلاء التجار وتـــأمينهم[3].

وإلى جانب فنادق الأوربيين وجد كذلك بالمدينة بعض الفنادق الخاصة بالتجار الأسيويين والأفارقة، من ذلك فندق التتار، وقد تميز هذا المكان ببيع واحدة من أهم السلع التجارية في ذلك الوقت وهي "تجارة الرقيق"[4]. وقد شاهد أحد الرحالة في أحد الأيام ما يزيد عن ستين من هؤلاء الرقيق يباعون داخل هذا الفندق بأثمان زهيدة، مؤكدا أن من يقومون بشراء هؤلاء الرقيق كانت لديهم العين البصيرة والخبرة الكافية التي تمكنهم- من نظرة واحدة إلى الوجه- من معرفة

---

(1) F. Fabri, *Op. cit*, p. 694-695.

(2) E. Piloti, *Traité*, p. 182 ; F. Bonnardot, *Op. cit*, p. 78.

(3) F. Fabri, *Op. cit*, p. ٦٧٧ ; E. Piloti, *L'Egypte*, p. 78 ; E. Piloti, *Traité*, p. 114 ; T. Bellorini, *Op. cit*, p. 39, 42 ; J. Ghistele, *Op. cit*, p. 114 ; Ch. Potvin, *Op. cit*, p. 109-110.

حقيقة الأمر هذا الحذر من جانب السلطات المملوكية في التعامل مع الغربيين يعود إلى الخوف من تكرار ما قام به ملك قبرص بطرس الأول Pierre 1er الذي قام بمهاجمة المدينة في يوم الجمعة من عام ١٣٦٥م/٧٦٧هـ. انظر: E. Piloti, *Traité*, p. 115

(4) F. Fabri, *Op. cit*, p. 697.

صفات وقدرات هؤلاء الرقيق [1]. كما كان هناك فندق خاص بالتجار القادمين من بلاد الأتراك والذين كان لهم حضور تجاري بارز داخل المدينة، بالإضافة إلى فندق للتجار القادمين من بلاد فارس وآخر لأولئك الوافدين إلى المدينة من بلاد المغرب العربي [2].

وكان يدير كل فندق ويشرف عليه أحد الشخصيات التى تنتمى إلى المدينة نفسها بعد موافقة السلطات المملوكية على شخصه، وكان يسمى بالقنصل [3]. وقد احتل هؤلاء القناصلة مكانة مرموقة داخل البلاد، وكان من مهامهم تسهيل العمليات التجارية لمواطنيهم ومحاولة تقليل قيمة الضرائب المدفوعة، والإشراف على عملية شحن وتفريغ البضائع في ميناء الأسكندرية، وحل المنازعات التي تنشب بين أفراد جاليتهم، بالإضافة إلى التدخل لدى السلطات المملوكية في حالة تعرض مواطنيهم أوتجارتهم للتعسف والمضايقات. ورغم أن كل أوربي مقيم على الأراضي المصرية كان يملك الحق في رفع شكواه للسلطان المملوكي نفسه في حالة تعرضه لأي ظلم أو إجراءات تعسفية من قبل الموظفين أو الأهالي، إلا أن تلك الشكوى كانت ستصبح أكثر جدوى في حالة قيام القنصل نفسه بحملها للسلطات [4]. كما أن هؤلاء القناصلة كانوا يمثلون الجهة الرسمية التي عبرها يقوم الحكام المماليك بنقل رسالاتهم وشكواهم إلى الغرب الأوربي؛ فمع بداية القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري قام السلطان الملك المؤيد شيخ بجمع قناصلة البندقية وجنوة وكتلونيا وأبلغهم بضرورة مخاطبة ملوكهم وحكامهم من

---

(1) F. Fabri, *Op. cit*, p. 697-698.

(2) J. Heers, *Op. cit*, p. 167.

(3) يعود ظهور منصب "القنصلية" للمدن التجارية الغربية في الشرق الإسلامي إلى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي/الخامس الهجري، عقب تأسيس الإمارات الصليبية في بلاد الشام. فبفضل مساهماتها - بأساطيلها - في قيام تلك المستوطنات الصليبية حصلت تلك المدن على عدد من المميزات داخل المدن الخاضعة للنفوذ الأوربي، من ذلك الحصول على حي يقيم فيه التجار، كما كان هناك شخص مسئول عن إدارة شئون تلك الجاليات وكان في البداية يحمل لقب *vicomte* ثم تغير هذا اللقب بعد ذلك ليصبح *consul*. أما عن ظهور منصب القنصلية في مصر فيعود إلى بداية القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري. انظر: E. Piloti, *L'Egypte*, p. 67, marge 1

(4) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 77-78 ; L. Legrand, *Op. cit*, p. 587 ; F. Fabri, *Op. cit*, p. 693-694 ; M. Baumgarten, *The Op. cit*, p. 391.

أجل وضع حد للهجمات والاعتداءات التي كان يقوم بها ملك قبرص ضد سواحل الأسكندرية[1].

جدير بالذكر أنه بالرغم من المعاملة الطيبة التي كان يجدها هؤلاء القناصلة من قبل السلطات المملوكية والتي كانت تخصص لبعضهم كذلك مكافأة سنوية تصل إلى مائتي من الدوكات[2]، إلا أنهم كانوا بمثابة "رهائن" لدى هذه السلطات؛ فكانوا يتعرضون للمضايقات والمعاملة السيئة في حالة قيام أحد من مواطنيهم بارتكاب أعمال عنف داخل الأراضي المملوكية [3]. ففي عام ١٤٠٨م/٨١٠-٨١١هـ قام السلطان المؤيد شيخ بفرض غرامة مالية على التجار الكتلونيين المقيمين بالأسكندرية ودمشق كرد فعل لأعمال القرصنة التي قام بها بعض مواطنيهم ضد السفن الإسلامية، ولما علم السلطان أن القنصل الكتلوني قد قام بمراسلة أفراد جاليته المقيمين بدمشق للتهرب من حمل تلك الأموال، أصدر المؤيد شيخ أوامره بسجن وضرب هذا القنصل، ثم قام بطرده هو والتجار الكتلونيين المقيمين داخل بلاده. وقد ظل منصب القنصلية الكتلونية داخل الأسكندرية خالياً حتى وصل إلى الحكم السلطان جقمق الذي وافق على إعادة هذا المنصب وأحسن استقبال القنصل٤ البرشلوني الذي وصل إلى الأسكندرية عام ١٤٣٨م/٤١-٨٤٢هـ [4].

٢/٣ مرافئ المدينة:

امتلكت الأسكندرية ميناءين مميزين ومتمايزين، بهما نالت المدينة شهرتها الكبيرة في المجال التجاري في ذلك الوقت، وكان يفصل بينهما لسان ضيق من الأرض، وعلى حافة هذا اللسان كان يوجد برج تميز بارتفاعه الكبير [5]، وفي

---

(1) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 78-79.

(2) بحسب رواية بيلوتي كان المبلغ الذي يتحصل عليه القنصل هو مائتي دوكات، أما سوتشر فإنه يذكر أن هذا المبلغ السنوي كان يصل إلى ألف ومائتي دوكات. انظر:

E. Piloti, *Traité*, p. 166 ; H. Thucher, *Op. cit*, p. 61a.

(3) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 111-112 ; E. Piloti, *Traité*, p. 166.

(4) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 117.

(5) F. Fabri, *Op. cit*, p. 718 ; E. Adler, *Op. cit*, p. 158 ; Ch. Potvin, *Op. cit*, p. 101.

قمته كانت توجد شعلة من النار مشتعلة دائما، وهي التي كانت بمثابة الدليل لربان السفن القادمة إلى هذا الميناء ليلاً [1]. كما أن السلطان الأشرف قايتباي- مدفوعاً بالخوف من توسعات الأتراك عقب سيطرتهم على مدينة القسطنطينية- قام عام ١٤٨٠م/٨٨٥هـ بتشييد عدد من التحصينات على هذا اللسان حتى يكون خط دفاع أول في حالة مهاجمة هؤلاء الأتراك للمدينة [2].

وقد خصص الميناء الأول- وهو الأقدم- لاستقبال السفن القادمة من بلاد ومدن الغرب الأوربي، أما الثاني- وهو الأكبر ويقع ناحية الجنوب قليلاً- فقد كان المرسى الأساسي للسفن القادمة من بلاد الشرق الإسلامي [3]. وقد ذكر ليون الأفريقي أن الميناء المخصص للسفن الأوربية- وعلى رأسها تلك القادمة من البندقية وجنوة- كان يسمى "بميناء البرج"، أما الميناء الذي كانت تقصده السفن الإسلامية فيسمى "بميناء السلسلة"[4]. كما أن مارتوني يصف ميناء البرج بأنه "كبير ومتسع، وهو دائري الشكل، ويبلغ طوله قرابة الثلاثة أميال"[5].

واقع الأمر أنه كانت هناك إجراءات تأمينية مشددة أمام الميناء المخصص لاستقبال السفن الإسلامية؛ فقد كان محرماً على التجار والرحالة الأوربيين محاولة الدخول إلى هذا المرفأ أو الاقتراب منه، وفي حالة تجرأ بعضهم على إرتكاب هذا الأمر فان مصيرهم يكون الضرب الشديد والإهانة بل ومحاولة قتلهم والتخلص منهم[6]. أما في حالة إبحار إحدى السفن الغربية باتجاه هذا الميناء ومحاولة الرسو فيه فإن حراس الميناء يقومون على الفور بمصادرة هذه السفينة والاستيلاء على البضائع الموجودة بها[7]. ويذكر مارتوني أن السبب في هذا التحريم والتشدد يعود

وقد شيد السلطان قايتباي القلعة الشهيرة المعروفة باسمه في مكان هذا البرج والفنار القديم. انظر:
F. Fabri, *Op. cit*, p. 719, marge (999).

(1) F. Fabri, *Op. cit*, p. 721.
(2) F. Fabri, *Op. cit*, p. 719, marge (998) ; H. Thucher, *Op. cit*, p. 58b.
(3) J. Heers, *Op. cit*, p. 159 ; Ch. Potvin, *Op. cit*, p. 101 ; Ch. Schefer, *Op. cit*, p. 174.
(4) Jean-Léon L'Africain, *Op. cit*, p. 496.
(5) L. Legrand, *Op. cit*, p. 586-587.
(6) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 787 ; Ch. Potvin, *Op. cit.*, p. 101 ; F. Suriano, *Op. cit.*, p. 187.
(7) J. Heers, *Op. cit.*, p. 159.

إلى كون هذا الميناء هو المكان الذي هاجم منه ملك قبرص المدينة عام ١٣٦٥م/٧٦٧هـ وقام بنهبها وتخريبها، لذا فقد كانت السلطات المملوكية تخشى من تكرار هذا الحدث[١].

إن الشيء الذي يمكن ملاحظته لأول وهلة من خلال حديث وكتابات الرحالة الغربيين عن هذين المرفأين هو النشاط التجاري الملحوظ وكثرة السفن التجارية القادمة إليهما من بلدان الشرق والغرب على السواء، وعمليات الشحن والتفريغ المستمرة للبضائع داخل تلك السفن؛ "فقد كانت أكياس وحقائب الفلفل والزنجبيل والقرنفل تملأ أرجاء المكان" [٢]. كما أن بعض هؤلاء الرحالة أشار إلى وجود عدد من الصخور والأحجار المغمورة بالمياه عند مدخل ميناء البرج، بالإضافة إلى ضيق هذا المدخل بسبب البنايات القديمة الموجودة بالمكان، وهو الأمر الذي أوجد نوعاً من الصعوبة في قدرة السفن التجارية الكبيرة على الوصول إلى الشاطيء، مما جعلها ترسو بعيدا عن الميناء بمسافة تصل إلى مئات الأمتار، ثم تأتي مراكب صغيرة تقوم بنقل البضائع من تلك المراكب إلى الساحل [٣]. وقد ذكر أنسلم أدورنو أنه لما وصلوا أمام سواحل المدينة وأرادوا الدخول إلى الميناء فوجئوا بارتطام سفينتهم بعدد من الصخور، والتي بسببها "كادت تلك السفينة أن تتحطم وتصير أجزاء متناثرة" [٤].

وقد كانت هناك إجراءات تأمينية دقيقة متبعة لحماية الساحل ومراقبة حركة الملاحة؛ فبمجرد علم حاكم المدينة بقرب وصول إحدى السفن إلى الميناء كان يقوم بإرسال بعض القوارب باتجاه تلك السفينة من أجل معرفة حالها والجهة القادمة منها والبضائع التي تحملها، ثم تقوم هذه الحامية بعد ذلك بمراسلة الحاكم عبر الحمام الزاجل تخبره بالتفاصيل التي حصلوا عليها عن تلك السفينة، فإن كان

---

(1) L. Legrand, *Op. cit.*, p. 587.
(2) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 707-708, 722 ; M. Baumgarten, *Op. cit.*, p. 392.
(3) E. Adler, *Op. cit.*, p. 158 ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 161 ; M. Baumgarten, *Op. cit.*, p. 392 ; Ch. Potvin, *Op. cit.*, p. 102.
(4) J. Heers, *Op. cit.*, p. 161.

الأمر يتعلق بهجوم عدائي ضد المدينة فإن الحاكم سرعان ما يقوم بتجهيز جنوده وإرسالهم باتجاه هذه السفينة لمطاردتها [١]. وقد أشار فرسكوبالدي إلى أنه عند اقتراب سفينتهم من الشاطيء وصلت إليهم مركب صغيرة تحمل بداخلها عدد من الرجال "البيض والسود" والذين كان يصل عددهم إلى العشرين. وقد كانت مهمتهم الأساسية فحص البضائع والأشخاص الموجودين على ظهر السفينة، ثم إنهم قاموا- كما هي العادة- بأخذ شراع (قلع) السفينة، والذي كانوا يحتفظون به حتى موعد اقلاع تلك السفينة من المدينة [٢].

جدير بالذكر أن الحمام الزاجل لعب دورا مهما كوسيلة اتصال آمنة ومفضلة في ذلك الوقت؛ لذا فقد كان هو الوسيلة المستخدمة في المراسلات التي تتم بين حاكم الأسكندرية وبين السلطان المملوكي بالقاهرة في حالة الضرورة، وعادة ما كانت الرسالة توضع في عنق هذا الحمام أو تحت جناحيه [٣]. مهما يكن من أمر فإن عملية تحصين وحماية مدينة الأسكندرية قد شهدت اهتماما كبيرا من قبل السلطات المملوكية، وبصفة خاصة منذ حملة ملك قبرص بطرس لوزجنان ضد المدينة عام ١٣٦٥م/٧٦٧هـ، والتي عانت بسببها المدينة من الحرق والدمار والتخريب، ولم يغادرها هذا الملك إلا بعد أن قام بنهب دورها وأسواقها [٤].

وقد ذكر بعض الرحالة أن هناك مراسم احتفالية كانت تمارس عند وصول السفن التجارية إلى ميناء الأسكندرية؛ فقد كانت تستقبل هذه السفن بقرع الطبول وطلقات المدافع [٥]. والأمر نفسه يحدث عند وصول أحد الشخصيات المهمة على متن سفينة إلى ميناء المدينة؛ فكانت المدافع تطلق القذائف، وتُقرع الطبول والدفوف، وكان أهالي المدينة يخرجون إلى الشاطيء لرؤية هذه الاحتفالية [٦].

---

(1) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 724-725 ; H. Thucher, *Op. cit.*, p. 58a ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 161; H. Moranville, *Op. cit.*, p. 32 ; L. Legrand, *Op. cit.*, p. 586.
(2) T. Bellorini, *Op. cit.*, p. 38.
(3) J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 121 ; E. Adler, *Op. cit.*, p. 162; H. Thucher, *Op. cit.*, p. 58a.
(4) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 725.
(5) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 674.
(6) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 672 ; M. Baumgarten, *Op. cit.*, p. 391.

وتجدر الإشارة إلى أنه كانت هناك عمليات تفتيش دقيقة تمر بها البضائع الداخلة إلى المدينة أو الخارجة منها، بحيث إنها كانت تخضع لعمليات مراقبة دقيقة من أجل الحصول على الضرائب المستحقة عليها [1]. وقد ذكر أحد الرحالة أن عمليات التفتيش هذه تمر بثلاث مراحل: الأولى عندما تكون تلك البضائع داخل الفنادق التي تقيم فيها الجاليات التجارية الأوربية؛ فكانت توزن السلع وتثمن أمام أعين الموظفين المختصين، وفي المرحلة الثانية كانت تفحص من جديد أمام أبواب المدينة، أما المرحلة الثالثة والأخيرة فكانت تتم بالميناء عندما تشحن تلك السلع بداخل السفن قبل أن تنطلق إلى وجهتها. وفي هذه المرحلة الأخيرة- التي كانت تفرغ فيها كل الأكياس الضخمة التي تحتوي على الفلفل والقرفة والزنجبيل- كان جزء من تلك البضائع يتعرض للنهب والسرقة من قبل بعض الفقراء والعربان والرقيق الأفارقة الموجودين بالمكان، والذين يقومون ببيع ما يتحصلون عليه أمام أبواب المدينة[2].

وقد أشار ليون الأفريقي إلى مبالغة موظفي الجمرك داخل الأسكندرية في القيام بعمليات التفتيش "حتى أنهم كانوا يقومون بفحص الملابس الداخلية للأشخاص"، بالإضافة إلى ذلك فإن الضرائب كانت تفرض على كل شيء "حتى الدنانير كان يدفع عليها نسبة من الضريبة، وتعامل معاملة البضائع" [3]. طريقة المعاملة هذه جعلت فرسكوبالدي يصرح قائلا: إن هؤلاء العمال "كانوا ينظرون إلى الأوربيين ويعاملونهم على أنهم حيوانات" [4]. ويبدو أن معاناة التجار الغربيين من تلك الضرائب الباهظة التي كانوا يقومون بدفعها في جمرك الأسكندرية قد ازدادت وتفاقمت على عهد السلطان الأشرف برسباي الذي لجأ إلى سياسة فرض نظام الاحتكار على تجارة التوابل [5]. مهما يكن من أمر فإنه بالرغم من تلك

(1) E. Adler, *Op. cit.*, p. 158.
(2) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 708.
(3) Jean-Léon L'Africain, *Op. cit.*, p. 496.
(4) T. Bellorini, *Op. cit.*, p. 38.
(5) E. Piloti, *Traité*, p. ١١٢.

الممارسات السيئة والتشديدات التي كان يواجهها أحيانا التجار الغربيون داخل الأسكندرية إلا أن هذا الأمر لم يثنهم عن مواصلة رحلاتهم التجارية إلى تلك المدينة، مدفوعين في ذلك بالحاجة الملحة للحصول على تجارة الشرق من ناحية، بالإضافة إلى الأرباح الطائلة التي كانوا يحققونها من وراء تلك التجارة من ناحية أخرى[١].

جدير بالذكر أن النشاط التجاري داخل مدينة الأسكندرية كان قد شهد تراجعاً ملحوظاً مع نهاية العصر المملوكي (بدءاً من القرن السادس عشر الميلادي/العاشر الهجري)، ولم يعد ميناء المدينة يستقبل ذلك العدد الكبير من السفن التي كانت تصل إليه في السنوات السابقة [٢]. وقد ذهب هؤلاء الرحالة إلى القول إن السبب في هذا التراجع- كما ذكر سابقا- يعود إلى سوء معاملة السلطات المملوكية للتجار وفرض الضرائب الباهظة عليهم، وتناسوا سببا آخر مهماً حدث في ذلك الوقت وهو نجاح البرتغاليين في اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح والوصول إلى السواحل الغربية لبلاد الهند عام ١٤٩٨م/٩٠٣هـ، وهو الأمر الذي جعل الأسكندرية تفقد أهم مصدر من مصادر تجارتها في ذلك الوقت، وبصفة خاصة تجارة التوابل [٣].

٣/٣ النشاط الزراعي

رغم تأكيدهم على قلة المياه بمدينة الأسكندرية إلا أن الرحالة الغربيين أشاروا إلى خصوبة أراضي المدينة وبصفة خاصة ضواحيها؛ فيذكر فابري أن الأراضي القريبة من المدينة تميزت بأنها "ذات خصوبة نادرة، بحيث إنه يمكننا أن نجد فيها بوفرة كل ما يحتاجه المرء لمعيشته" [٤]. كما أنهم أشاروا إلى أن

---

(1) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 52.
(2) C. Passi, *Op. cit.*, p. 23.
(3) V. Godinho, *L'économie de l'empire portugais aux XV^e et XVI^e siècles*, Paris, 1969, p. 730 ; Ch. Diehl, *La République de Venise*, Paris, 1985, p. 186.
(4) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 655.

الأسكندرية كانت محاطة بالحدائق والبساتين، والتي كان يوجد بها عدد من المباني والقصور الجميلة. وقد اشتملت تلك المزارع على أنواع متنوعة ومتعددة من الفواكه مثل التين والموز والعنب والتفاح والبرتقال والليمون "الذي لا مثيل له في جودته" (١).

وانتشرت زراعة أشجار "الكبر (القبّار) *câprier*" بصورة كبيرة في ضواحي المدينة، وهى ثمرة تشبه ثمرة "المشمش، كما كانت تحتوي على "بذور صفراء صغيرة مثل الأقحوان"، وكان من المعتاد أن يقوم المزارعون بقطف هذه الثمرة قبل أن تصل إلى مرحلة النضج (٢). ويعد الموز واحداً من أنواع الفواكه التي اهتم بزراعتها الفلاحون، لذا فقد وجدت هذه الثمرة رواجاً كبيراً داخل أسواق المدينة (٣). وقد أشار أنسلم أدورنو إلى أن زراعة هذه الثمرة إنما يكون في المناطق ذات الأجواء الحارة. كما أنه وصف أشجار الموز بأنها قصيرة وذات أوراق خضراء طويلة وعريضة (٤). ويعد النخيل من أكثر الأشجار تواجداً داخل المزارع، وقد عرفت المدينة واشتهرت بتمورها الطيبة (٥). أما مشولام فقد أشاد بحلاوة طعم فواكه المدينة، كما أنه أكد على وفرة اللحوم والدواجن والخبز داخل الأسواق. بيد أن هذا الرحال أشار إلى النقص الحاد الذي كانت تعاني منه المدينة في الأخشاب والزيوت، وهو الأمر الذي نتج عنه ارتفاع كبير في أسعار هاتين السلعتين (٦).

يذكر الرحالة مارتوني أن حقول ومزارع المدينة كانت تستفاد من الفترة التي يحدث فيها فيضان النيل؛ حيث كانت تلك الأراضي تغمر بالمياه لمدة تصل إلى أربعين يوما، ثم بعد انحسار هذا المياه كان يقوم الفلاحون ببذر الحبوب في الأرض. انظر: L. Legrand, *Op. cit.*, p. 591

(1) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 37 ; H. Thucher, *Op. cit.*, p. 58b ; L. Legrand, *Op. cit.*, p. 589 ; F. Suriano, *Op., cit*, p. 187.

(2) J. Ghistele, *Op. cit.*, p. 113 ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 169.

(3) E. Piloti, *Traité*, p. 68 ; J. Heers, *Op. cit.*, p. 169.

(4) J. Heers, *Op. cit.*, p. 169.

(5) *Ibid.*

(6) E. Adler, *Op. cit.*, p. ١٦٠.

وكانت فلاحة الأرض وزراعتها تعتمد بصفة أساسية على طبقة الرقيق، وقد أشار فابري إلى رواج تجارة الرقيق داخل الأسكندرية، مؤكدا أنه بسبب ذلك "نجد أحيانا قري ومزارع تسكن بأكملها من هؤلاء الرقيق" (١). وقد وصف لنا أحد الرحالة بعض الحيوانات الموجودة بالمدينة؛ فيذكر أن "الحمير تتميز بقوتها وجمالها الفائق"، وكنوع من الزينة فإن الأهالي كانوا يضعون على ظهور تلك البهائم "البرادع" الفخمة المصنوعة أحيانا من الأحجار الكريمة؛ بحيث إن هذا الرحال يذكر أنه رأي احدى تلك البرادع تباع بأكثر من ألفين من الدوكات (٢).

وبصفة عامة كان موسم الحصاد في مصر يبدأ مع مطلع شهر أبريل، وعملية درس القمح وبقية الحبوب كان تتم على فترتين: الأولى في شهر أبريل والثانية في شهر مايو؛ "بحيث إنه قبل الوصول إلى يوم العشرين من مايو لم يكن يرى أي نوع من المحاصيل الزراعية في الحقول الريفية" (٣). كما أن أحد الرحالة لاحظ أن نباتات وفواكه المدينة كانت سريعة النمو والنضج، مؤكدا أن هذا الأمر يعود إلى "الندى" المنتشر داخل الحقول والمزارع، ويضيف أنه لم يشاهد في حياته مكانا آخر منتشر فيه الندى بهذه الكثرة مثلما هو الأمر في الأسكندرية، مؤكدا أنه عند رؤية المرء له يعتقد للوهلة الأولى أنه أمطار، "إلا أنه سرعان ما يتبخر مع شروق الشمس" (٤).

مهما يكن من أمر فإن تلك الأراضي المزروعة لم تكن لتفي بكل حاجات السكان خاصة فيما يتعلق بالحبوب؛ لذا فقد كان القمح يحمل إليها من مناطق تبعد عنها بحوالي أربعين ميلاً (٥). وقد ذكر أنسلم أدورنو أنه أثناء وجوده بالمدينة كان الأهالي يعانون من نقص حاد في القمح، لذا فقد أكثر الأهالي من شراء لحوم الإبل والتي أصبحت هي الوجبة الرئيسية للسكان وذلك لعدم توفر الخبز (٦). وفي هذا

---

(1) Félix Fabri, *Op. cit.*, p. 701.
(2) E. Adler, *Op. cit.*, p. 159; J. Heers, *Op. cit.*, p. 171.
(3) Jean-Léon L'Africain, *Op. cit.*, p. 494.
(4) E. Adler, *Op. cit.*, p. 160.
(5) Jean-Léon L'Africain, *Op. cit.*, p. 497.
(6) J. Heers, *Op. cit.*, p. 169.

السياق يشير بيلوتي إلى أن المناطق المحيطة بالمدينة والتي كان يسكنها القبائل البدوية كانت تمثل أهمية كبيرة للمدينة في الحصول على ما تحتاجه من منتجات زراعية وحيوانية؛ فمن هناك كان يصل إليها القمح والدقيق والدواجن والبيض ولحوم الأبقار والضأن. وفي مقابل ذلك فإن مدينة الأسكندرية كانت تزود هؤلاء العربان بما يحتاجون إليه من أصواف ومنسوجات وسجاد وتوابل وزيوت وصابون وغيرها من المنتجات الأخرى، "وعلى هذا فلم يكن بوسع المناطق البدوية العيش بدون الحصول على ما تحتاجه من الأسكندرية، ولا بوسع تلك المدينة الأخيرة العيش بدون الحصول على المنتجات البدوية المهمة للسكان" [١]. لذلك فإنه عندما كان يدخل هؤلاء العربان في حروب وتصبح الطرق غير آمنة، كان ذلك الأمر يؤدي إلى معاناة الأسكندرية كثيرا من نقص في المواد الغذائية التي كانت تصل إليها من تلك الجهات [٢].

٤/٣ الصناعات الحرفية

رغم أن النشاط التجاري كان هو النشاط الأبرز والأكثر أهمية داخل مدينة الأسكندرية إلا أنه كان يوجد كذلك عدد من الأنشطة الأخرى التي انخرط فيها سكان المدينة، من ذلك الأعمال والصناعات الحرفية. فقد شاهد فابري عدداً كبيراً من هؤلاء العمال أثناء ذهابه لزيارة بعض الكنائس والمزارات المسيحية، ويفهم من كلامه أن حوانيت هؤلاء الحرفيين كانت تمتد في شارع طويل ومتسع [٣].

كما أشار بيلوتي إلى وجود عدد من المصانع (المشاغل) التي كانت تنتج الأقمشة الحريرية والصوف، مؤكدا أن تلك المصانع كان يصل عددها قديماً إلى الآلاف إلا أنه مع انخفاض عدد السكان داخل المدينة وتناقص عدد العاملين في تلك المهنة لم يتبق إلا عدد قليل من تلك المصانع [٤]. ويؤكد بيلوتي على جودة وتميز تلك الأقمشة الحريرية المصنعة داخل المدينة، لذا فإنها كانت تحمل إلى

---

(1) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 19-20.
(2) E. Piloti, *Traité*, p. 59.
(3) F. Fabri, *Op. cit.*, p. 685.
(4) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 36 ; E. Piloti, *Traité*, p. 90.

بلاط السلطان المملوكي بالقاهرة، كما أنها كانت تصدر كذلك إلى بلاد المغرب العربي وبلاد الشام وبلاد الأتراك[1]. كما أكد مشولام على الجودة العالية التي تميزت بها أصواف المدينة، ذاكراً أن تلك الملابس الصوفية- رغم جودتها- كانت تباع في الأسواق بأسعار متخفضة وفي متناول الجميع[2].

٣. مدينة الأسكندرية داخل المشروع الصليبي

شهدت المشاريع الصليبية عقب سقوط عكا في أيدي المماليك عام ١٢٩١م/٦٩٠هـ تغيراً كبيراً في استرتجيتها وأهدافها؛ فلم تعد تلك المشاريع تهتم كثيرا بالجوانب العسكرية، وذلك بإرسال حملات حربية من أجل استرداد "الأماكن المقدسة"، وإنما أصبحت تركز بصفة خاصة على فكرة "الحصار الاقتصادي للسواحل المصرية"، وذلك حتى يحرموا سلطنة المماليك من التجارة التي كانت تمثل العمود الفقري لاقتصاد تلك الدولة [3]. انطلاقا من هذه الحقيقة فقد وجدنا ظهور عدد كبير من الرسائل والكتب التي قام بصياغتها مجموعة من المفكرين والرحالة الأوربيين والذين سموا "بالمنظرين للحروب الصليبية *les théoriciens de croisades*"، وقد كان كل واحد منهم يعرض فكرته ورأيه في كيفية تفعيل هذا الحصار حتى يؤتي الثمرة المرجوة منه، ثم يقوم بدفع رسالته هذه إلى البابوية من أجل تنفيذ مشروعه على أرض الواقع [4].

ولعل الرحال والتاجر البندقي إيمانويل بيلوتي يعد أهم وأشهر هؤلاء المنظرين على الإطلاق؛ فقد قام بتأليف كتابين مهمين هما:

« Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte » et « L'Égypte au commencement du XV^e siècle d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète ».

---

(1) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 36 ; E. Piloti, *Traité*, p. 91.

(2) E. Adler, *Op. cit.*, p. 160.

(3) J.-C. Garcin, « Aux sources d'une idéologie : la force empruntée de l'Islam », in *Espaces, pouvoirs et idéologies de l'Egypte médiévale*, éd. Variorum Reprints, Londres, 1987, p. 162 ; A. Dupront, *Le mythe de croisade*, Paris, 1997, p. 165.

(4) S. Runciman, *Histoire des croisades*, traduit de l'Anglais par Denis Armand Canal et Guillaume Villeneuve, Paris, 1998, p. 1011-1012 ; A. S. Atiya, *Crusade, Commerce and Culture*, éd. Indian university Press, Bloomington, 1962, p. 94-95.

وقد تعرض خلالهما للحديث عن أحوال مصر في عصر سلاطين المماليك البرجية، إلا أن التركيز الأكبر كان منصباً للحديث عن التجارة وأهميتها لمصر في ذلك الوقت، وعلى هذا الأساس فقد نالت الأسكندرية عناية كبيرة من قِبَل هذا الرحال بحكم كونها المدينة التجارية الأكثر أهمية في البلاد المصرية.

ويعد بيلوتي من أكثر الرحالة استقراراً بمصر؛ فقد ظل بها ما يزيد عن إثنين وعشرين عاماً في الفترة الواقعة ما بين عامي ١٣٩٦م/٧٩٨هـ و ١٤٣٨م/٨٤٢هـ، وقد قضى معظم وقته في ممارسة التجارة متنقلاً ما بين مدينتي القاهرة والأسكندرية[1]. وبناء على هذا فإنه يمكننا القول إن تلك الزيارات المتكررة التي قام بها بيلوتي للأسكندرية خلال تلك السنوات الطوال قد جعلت منه خبيراً بتلك المدينة وأحوالها وأخبارها وطبيعتها وتحصيناتها. واعتماداً على ما رآه بعينيه من الازدهار التجاري الذي تميزت به تلك المدينة والتي مثل جمركها وضرائبها جزءاً مهما في مصادر دخل السلاطين المماليك، فإن مشروعه الصليبي الذي تقدم به للبابوية ولملوك أوروبا كان يرتكز على ضرورة مهاجمة تلك المدينة والاستيلاء عليها لحرمان حكام مصر من أهم مواردهم، ذاكراً أهم الخطط والوسائل التي يمكن أن يحقق بها الأوربيون هذا الهدف [2]. وعلى هذا فقد مثلت الأسكندرية محوراً مهما وحجر الزاوية في المشروع الصليبي لإيمانويل بيلوتي: فهي- كما يقول- المفتاح الذي يستطيع بواسطته الصليبيون الاستحواذ على مصر كلها ثم استرداد الأراضي المقدسة [3]. وقد سيطرت تلك الفكرة على جزء كبير من كتابات هذا الرجل، فهو يؤكد على أن الأسكندرية هي المصدر والمنفذ الأساسي لتزويد مصر بكل ما تحتاجه من سلع وبضائع، "وحياة هذه البلاد قائمة عليها"، لذا فإن الاستيلاء على هذه المدينة سيؤدي بلا شك إلى دمار وانهيار القاهرة "التي ستصاب بالقحط والجفاف". وقد شبه

---

(1) E. Piloti, *L'Egypte*, p. 21.
(2) E. Piloti, *Traité*, p. 178, 193, 160-161, 209.
(3) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 118.

البلاد المصرية في هذا الوضع "بحالة الشخص الذي سيصبح مسجوناً ومعزولاً عن الآخرين" (١).

من ناحية أخرى فإن بيلوتي أشار إلى صعوبة مهاجمة مصر من الناحية البرية، وذلك بسبب الصحراء التي تحيط بتلك البلاد من كل ناحية، وهو الأمر الذي منحها حماية طبيعية من تلك الجهات ضد أي هجوم خارجي، وعلى ذلك فإن الحل الأمثل يكمن في مهاجمتها عن طريق سواحلها البحرية، وبصفة خاصة من ناحية مدينة الأسكندرية (٢). ويذكر بيلوتي في كتابه الذي تقدم به للبابوية أنه من أجل إنجاح مشروع الحملة الصليبية لابد من توافر شروط ثلاث: أولا: إحاطة هذا المشروع بالسرية والكتمان التام حتى لا يصل خبر الحملة للسلطات المملوكية فيأخذوا الحذر والحيطة من أجل صد الهجوم المتوقع. ثانيا: القيام بتجهيز وإعداد أسطول حربي قوي قادر على حصار الأسكندرية والتغلب على قوة المماليك البحرية. ثالثا: توحد جميع القوى الأوربية حول هذا المشروع، وترك نزاعاتهم وخلافاتهم جانباً من أجل استرداد "الأراضي المقدسة" (٣). كما أن هذا الرجال أشار إلى أن الوقت الأمثل لمهاجمة المدينة يجب أن يبدأ خلال شهر سبتمبر مع بداية فيضان النيل: حيث إنه في هذا التوقيت تكون أسواق المدينة ممتلئة بالبضائع والتوابل التي تصل إليها من القاهرة عبر مجرى النيل (٤).

وبصفته واحداً من الشخصيات التي تنتمي في أصولها لمدينة البندقية فإن بيلوتي يمنح كثيراً من المميزات لهذه المدينة في مشروعه الصليبي؛ فهو يرى أن تلك المدينة الإيطالية- بما لها من قدرات وخبرات- هي الأجدر بأن تتولي مسئولية حمل ونقل الجنود الصليبيين ومعداتهم إلى السواحل المصرية. وكمكافأة لها عن تلك المساعدات ستكون البندقية- بعد نجاح المشروع- هي صاحبة الحق والامتياز في

---

(1) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 116-117.
(2) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 225, 238.
(3) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 119-120, 211-213.
(4) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 183.

السيطرة على تجارة الأسكندرية ونقل البضائع على متن سفنها إلى الغرب الأوربي [١].

وقد غلبت المصالح التجارية على فكر بيلوتي أثناء تدوينه لمشروعه، فنراه يؤكد على أن استحواذ الصليبيين على الأسكندرية كان سيعني تمتع الغربيين بأهم ميناء تجاري في المنطقة، والذي من خلاله يستطيعون السيطرة على كل تجارة الشرق. هذا الأمر سينتج عنه من ناحية أخرى عدم حاجة السفن الغربية للذهاب باتجاه السواحل الشامية، مما سيؤدي إلى انهيار ودمار الاقتصاد السوري. وفي هذا السياق يقدم بيلوتي نصيحة للبابوية بإصدار عدد من المنشورات التي تحرم نهائياً على التجار الغربيين الذهاب للموانئ السورية وتلزمهم بقطع كل علاقاتهم بتلك المناطق، كما أنه أوصى بأن يكون هناك أسطول حربي يتخذ من مدينة الأسكندرية قاعدة له، وتكون مهمته الرئيسية هي التصدى لأية سفينة تجارية أوربية تحاول اختراق هذا الحظر [٢].

ولم ينس بيلوتي أن يشير إلى ضرورة عودة مصر إلى أحضان المسيحية كما كانت من قبل؛ فهو يرى أن الاستيلاء على الأسكندرية سيكون عاملاً مهما في نشر الديانة المسيحية بين سكان مصر، كما أن ازدهار وشهرة هذه المدينة سيعمل على جذب عدد من الأسر والعائلات الغربية المسيحية للقدوم إليها والاستقرار بها [٣].

مهما يكن من أمر فإن هذا المشروع الصليبي لإيمانويل بيلوتي القائم على الاستيلاء على مدينة الأسكندرية لم يجد له صدى كبيرا في الغرب الأوربي ولم ير النور مطلقا؛ فالأزمات المالية التي كانت تمر بها البابوية في ذلك الوقت من ناحية، بالإضافة إلى انشغال كل واحد من ملوك أوربا بشئون بلاده الداخلية من ناحية أخرى وقفت حائلاً أمام تنفيذ هذا المشروع على أرض الواقع [٤].

---

(1) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 132-133, 225.
(2) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 124-125, 130-132.
(3) E. Piloti, *Op. cit.*, p. ١١٨, 183-185.
(4) E. Piloti, *Op. cit.*, p. 171-172, 128-129.

خاتمة البحث

تناول هذا البحث بالدراسة مدينة الأسكندرية وأحوالها من خلال كتابات وشهادات الرحالة الأوربيين الذين قاموا بزيارة المدينة خلال عصر المماليك الجراكسة، ولا شك في أن تلك الكتابات مثلت أهمية كبيرة في إلقاء المزيد من الضوء على مدينة الأسكندرية في عصر المماليك الجراكسة، وبصفة خاصة على مستوى الجوانب الحضارية (حياة اجتماعية، نشاط اقتصادي، منشآت اجتماعية وتجارية...)، ومن خلال هذا العرض يمكن أن نخرج بعدد من الحقائق والمعلومات المهمة عن تلك المدينة، والتي يمكن إجمالها فيما يلي:

- نالت مدينة الأسكندرية أهمية من الدرجة الأولى بالنسبة لسلاطين المماليك وهذه الأهمية يعود جزء كبير منها إلى تلك الأموال الضخمة التي كانت تحصل في جمرك المدينة كضريبة على كافة السلع والبضائع الواصلة إلى موانئها، ثم كانت تحمل تلك الأموال من هناك إلى الخزائن السلطانية بالقاهرة.
- اهتمام سلاطين المماليك بتلك المدينة تجلى بوضوح في التحصينات القوية التي قاموا ببنائها، والحامية العسكرية كبيرة العدد التي خصصوها للدفاع عن المدينة خوفاً من مهاجمة الأوربيين لها من ناحية البحر.
- امتلاك المدينة لميناءين مميزين وممهدين لاستقبال السفن التجارية كان عاملاً مساعداً في إكسابها مزيداً من الأهمية التجارية، وقد أبدى الرحالة اندهاشهم من كثرة السفن التجارية المحملة بشتى أنواع البضائع التي شاهدوها داخل هذين المرفأين والقادمة من بلاد الشرق والغرب على السواء.
- شهدت مدينة الأسكندرية تدهوراً كبيراً على المستوى العمراني في تلك الفترة، فكانت معظم المنازل والمباني مهدمة، وقد أرجع الرحالة هذا الأمر إلى ما عانته المدينة من نهب وحرق أثناء مهاجمتها من قبل ملك قبرص بطرس الأول عام ١٣٦٥م/٧٦٧هـ.

- لم يختلف المجتمع داخل الأسكندرية عن بقية مدن مصر الأخرى؛ فقد ظلت طبقة المماليك تمثل العناصر السكانية الأكثر أهمية داخل المدينة؛ فحصلت على العديد من المميزات التي لم تصل إليها أي فئة أخرى، بينما قبع السكان المحليون (العامة) في مؤخرة السلم الطبقي، وعانوا كثيراً من شظف العيش ومصاعب الحياة بالإضافة إلى تعنت وظلم العناصر المملوكية الحاكمة، ومن هؤلاء العامة كانت تتشكل طوائف الفلاحين والحرفيين.
- بعد انهيار الإمارات الصليبية في بلاد الشام ومع التغير الذي طرأ على استراتيجية الحروب الصليبية بدءا من القرن الرابع عشر الميلادي/الثامن الهجري أصبح لمدينة الأسكندرية ظهورا بارزا ودورا مهما في المشاريع الصليبية القائمة على فكرة "الحصار الاقتصادي للدولة المملوكية"؛ فمحاصرة سواحل تلك المنينة والاستيلاء عليها أضحى في ذلك الوقت الهدف الرئيسي للحملات التي كانت ستتجه إلى بلاد الشرق الإسلامي".
- عانت مدينة الأسكندرية من تدهور كبير على المستوى التجاري مع بداية القرن السادس عشر الميلادي/العاشر الهجري، هذا الانهيار يعود من ناحية إلى السياسة العدائية التي اتبعها بعض سلاطين المماليك ضد التجار الغربيين خاصة فيما يتعلق باحتكار بعض السلع التجارية وزيادة الضرائب والمكوس المفروضة على التجارة. ومن ناحية أخرى فإن اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ووصولهم إلى الساحل الغربي لبلاد الهند ثم سيطرتهم على تجارة المحيط الهندي كان ذلك الأمر بمثابة ضربة قاصمة لتجارة مصر؛ فقد قلت بشكل كبير كمية التوابل الهندية التي كانت تصل إلى الأسكندرية، حتى أن السفن الغربية كانت تغادر المدينة وهي خاوية أو محملة بكميات قليلة من تلك السلع المهمة.

مصادر ومراجع البحث

أولا: المصادر

Adler (E.), « Meshullam Ben R. Menahem of Volterra », 1481, in *Jewish travelers*, New Delhi, 1995.

Baumgarten (Martin), *The Travels of Martin Baumgarten, a Nobleman of Germany, through Egypt, Arabia, Palestine, and Syria*, Traduction: Cl. Normand, London, 1732.

Bellorini (T.), *Visit to the Holy Places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384 by Frescobaldi, Gucci and Sigoli*, Traduction: O. Sennoune, Jerusalem, 1948.

Bonnardot (F.), *Le saint voyage de Jérusalem du seigneur d'Anglure*, Paris, 1878.

Fabri (Félix), *Voyage en Egypte*, Traduit du Latin et annoté par Jacques Masson, éd. IFAO, Le Caire, 1975.

Ghistele (Joos Van), *Voyage en Egypte* (1482-1483), Traduction et notes de Renée Bauwens-Préaux, IFAO, Le Caire, 1976.

Heers (J.), *Itinéraire d'Anselme Adorno en Terre Sainte (1470-1471)*, Paris, 1995.

L'Africain (Jean-Léon), *Description de l'Afrique*, traduit de l'Italien par A. Epaulard, éd. Librairie d'Amérique et d'Orient, Paris, 1980.

Legrand (L.), « Relation de pèlerinage de Nicolas de Martoni (1394-1395) », in *Revue de l'Orient Latin*, T. III, 1894, (pp. 566-669).

Moranville (H.), *Un pèlerinage en Terre sainte et au Sinai au XV^e siècle*, Paris, 1905.

Passi (C.), *Relationi del S. Pietro Martire milanese delle cose notabili della provincia dell Egitto scritte in lingua Latina alli Serenisse di elici memoria Re Catolici D. Fernando e D. Isabella*, Traduction : C. Burri et N. Sauneron, Venetia, 1564.

Piloti (Emmanuel), *L'Égypte au commencement du XV^e siècle d'après le traité d'Emmanuel Piloti de Crète*, Le Caire, 1932.

----------, *Traité d'Emmanuel Piloti sur le passage en Terre Sainte*, publié par Pierre-Herman Dopp, Paris, 1958.

Potvin (Ch.), *Œuvres de Ghillebert de Lannoy: voyageur, diplomate et moraliste*, Louvain, imprimerie de P. Lefever, 1878.
Schefer (Ch.), *Le voyage d'Outremer : Egypte, Mont Sinay, Palestine de Jean Thenaud, suivi de la Relation de l'ambassade de Domenico Trevisan auprès du soudan d'Egypte, 1512*, Paris, 1884.
Suriano (Francesco), *Il trattato di terra et dell Oriente di Frate Francesco Suriano, Missionario e viaggiatore del secolo VX (Siria, Palestina, Arabia, Egitto, Abissinia)*, Traduction : C. Burri et N. Sauneron, éd. G. Golubovich, Milano, 1990.
Thucher (Hans), *Grundtlicher und Eigentlicher Bericht der Meerfart*, Traduction: U. Castel, Francfurt am Meyn, 1561.

ثانيا: المراجع المساعدة

زكي (نعيم) ، *طرق التجارة ومحطاتها الدولية*، القاهرة، ١٩٧٣م.

الشيال (جمال الدين) ، *تاريخ مدينة الأسكندرية في العصر الإسلامي*، دار المعارف- القاهرة، ١٩٦٦.

عاشور (سعيد عبد الفتاح)، *الأيوبيون والمماليك في مصر والشام*، دار النهضة العربية – القاهرة، ١٩٩٦م.

العريني (السيد الباز) ، *المماليك*، دار النهضة العربية-بيروت، ١٩٦٧.

عطية (عزيز سوريال) ، *تاريخ المسيحية الشرقية*، (ترجمة) إسحاق عبيد، المجلس الأعلى للثقافة-القاهرة، ٢٠٠٥م.

قاسم (عبده قاسم)، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف-القاهرة، ١٩٧٨م.

Atiya (A. S.), *Crusade, Commerce and Culture*, éd. Indian university Press, Bloomington, 1962.
Diehl (Charles), *La République de Venise*, Paris, 1985.
Dnsette (Béatrice), « Le voyage d'Outre-mer à la fin du XV^e^ siècle », in *Chemins d'Outre-mer, Etudes d'histoire sur la Méditerranée médiévale offertes à Michel Balrd*, T. 1; publication de la Sorbonne, Paris, 2004, (pp. 171-182).
Dupront (Alphonse), *Le mythe de croisade*, Paris, 1997.